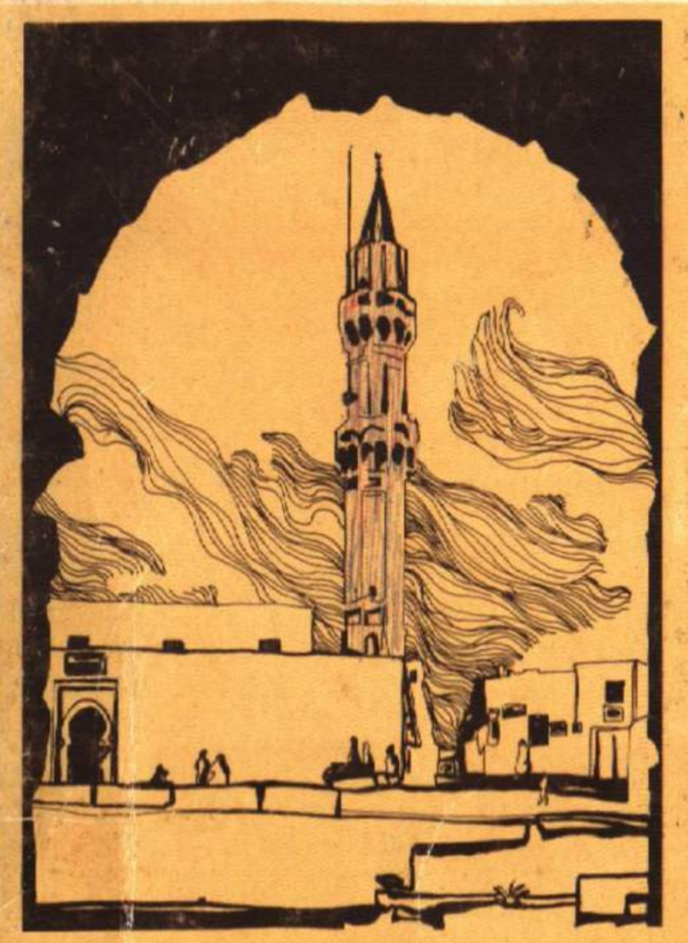
مدينة طرابلس
عبر التاريخ

نجم الدين غالب الكيب







الدار العربية للكتاب

مدينة طرابلس

عبر التاريخ

تأليف

نجم الدين غالب الكيب

«الطبعة الثانية»

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس

مقدمـــة

من الأمـور الملفتة للنظـر الا يجـد المرء بحثـا مستقـلا حـول (مدينة طرابلس) ، فكل ما هنالك في الوقت الحاضر ، مجـرد نتف من المعلومات مبعثرة في حشد كبيـر مـن الكتب والمـؤلفات بلغـات كثيرة ومن بينها اللغـة العربية طبعـا ، وقـد استشعـرت أنـا شخصيا هـذه الثغرة في هذه الناحيـة فاخـذت على عاتقـي منذ زمـن طويـل بأن احـاول ـ وبقـدر ما تسمح بـه امكانـاتي المتواضعـة ـ مـلء هـذه الثغـرة . فشرعت أتصيـد تلك النتف من المعلومات الموزعـة على العديـد من المـؤلفات ذات العلاقـة غير المباشرة ، أو تلك التي لها علاقة مباشرة بتاريخ المـدينة موضوع البحث ، واقيدها في مفكرتي ، وهكـذا وجـدتني مع مرور الزمـن أمتلك من هـذه المعلومـات قـدرا كبيـرا .

والحقيقـة فقد كنت انـوي ان أخـرج من هـذه المعلومـات التي تـوافرت لدي بدراسة شاملة عن أحـوال مدينة طـرابلس ـ تاريخيا واجتماعيا وعمرانيا ـ من خلال واقع تلك الحضارات التي مـرت بها وتوالت عليها هكذا كانت الفكـرة في البدايـة ولكنني صادفت عقبات كثيرة عند ما وجدتني اضع الفكرة ذاتها على محك العمل والتطبيق ، وقد بدأ لي أن أهـم المعوقات التي واجهتها عدم حصولي على معلومات عن المدينة وهي في طـور النشوء ، بل استطيع القول بأن هذا النقص ينسحب على أحقاب طويلة من حياة المدينة تبدأ من يوم نشأتها حتى العهد العـربي

المتقدم ، والذي يزيد في تعقيد الأمور أن المكتشفات الأثـريـة لمـدينة طرابلس قليلة ولا يمكن الاستعانة بها في التوصل الى معلومات ذات قيمة تذكـر ، كما عجزت أيـدي المكتشفين الـى الوصول الى الأجزاء المتوارية منها تحت سطـح الأض بسبب قيـام مدينـة طـرابلس الحـديثـة فـوقهـا .

وبما ان مـدينة طرابلس قد مرت ـ وشانها في ذلك شان أكثـر المـدن ذات الجذور التاريخية الضاربـة في الـزمـن ـ بمراحل تاريخية تقلبت فيها على احضان حضارات كثيرة ، وبقدر ما يكون تعـدد تلك الحضارات التي تعاقبت عليها بقـدر ما يكون الجهد شاقا في تمييـز أصولها الأولى ، وتفريق بعضها عن البعض الآخر اذ يحـدث أن يصادف الـدارس لمثـل هـذا الموضوع بعض اللبس في تحديد النشاة الاولى لاجزاء كثيرة من معالـم المدينة التي كتب لها البقاء ، وذلك بسبب خضوع تلك المعالم لمحك التغيير حسب المعطيات الحضارية المتقلبـة ، ومن ثـم فقد أخذت أشكالا عديدة تبعا لتعدد المؤثرات الحضارية التي تعرضت لها ، واحسن مثال على ذلك ما وقع فعلا بالنسبة لقلعـة طرابلس ـ وعليه فانه يتعين على الـدارس قبـل ان يفصل في أمر النشاة الأولى لبعض المعالم المتبقية من المدينة ـ أن يبذل ما في وسعـه للحصول على نتائج علميـة موثوق بها ، واعتقد ان هناك (وهذا بالنسبة لأولئك الدارسين الذين يودون التوسع في تحقيقاتهم التاريخيـة لمعـالـم مـدينة طـرابلس) الكثير من الملابسات التي سيواجهها الدارس ازاء تصوراته عن المـدينة القديمة المفقودة ، فهو سيكون مضطرا الى ان يلجـا الى الكثير من الافتراضات لتغطية عجـزه في الحصول على معلـومـات ذات صبغـة علميـة مميـزة .

لذلك كله فان العبء سيكون كبيرا على كل دارس يـود ان يقـدم لنا صورة أمينة لمدينة طرابلس تتفق مع حقيقـة تلك

الحضارات التي تعاقبت عليها ، وقد حاولت في دراستي هذه ان اذلل البعض من تلك الصعوبات ، وان ظل جزء كبير قائم يلح على الباحثين والمؤرخين لأن يواجهوا مسؤولياتهم فيها .

المؤلف

طرابلس في ١٦ شوال ١٣٩٠

الموافق

١٥ ديسمبر ١٩٧٠

أسطورة قديمة (1)

كانت في العصور الغابرة البعيدة تقع بين سرت والجبل بلاد غنية ومخصبة للغاية ، لها حدائق جميلة من نخيل واعناب تطوفها دانية ذات دفء في الشتاء أما في الصيف فلقد كانت مصونة من الرياح الحارة وكان الناس يعيشون بهناء تام والحياة سعيدة بسيطة هي اشبه شيء بحياة الجنة ولكن يا للروعة ، فانه مع مضي الزمن غير الناس ما في قلوبهم واتبعوا الشهوات وغضب الله واقسم ليمتحن سكان هذه البلاد الطيبة .

وظهرت من البحر حورية من اجمل حور العين كاللاتي وعد الله المؤمنين بهن في الجنة فحملتها زعانفها الذهبية والقتها على شاطىء المنشية (طرابلس) ودخلت احدى حدائق النخيل والبرتقال ذات الروائح العطرة الذكية ، وتطاير خبر قدومها في البلاد بسرعة البرق ، واخذ الكل يتحدث عن جمالها الفتان وجاذبيتها الاخاذة ، وسمع بذلك الخبر ابن سلطان (غاديا) الذي تملكه شعور جامح لا يرد ، شعور الاغراء بتلك الفتاة ، فلبس افخر ما عنده من ملابس مرفهة ومزركشة ، كانت قمصانه الحريرية والصوفية اشبه شيء بالقطيفة مطرزة بالذهب وغيره من الحواشي ، وتمنطق خنجره ذا المقبض المطعم بالذهب والمرصع بالأحجار الكريمة . اما جواده فلقد كان مطهما بأثمن ما يوصف به اي طقم للخيول ، وعلى ظهره سرج من الذهب جلوده مزركشة ومحلاة بالفضة . وركب الأمير جواده وعند ما اقترب من تلك الحديقة الغناء التي كانت الحسناء تستظل

(١)نقلنا هذه القصة من كتاب ليبيا في العهد العثماني الثاني ١٨٣٥ ــ ١٩١١ انتوني جوزيف كاكيا ، ترجمة يوسف حسن العسلي ص ٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٣ .

بأشجارها صاح من شدة فرحه مخاطبا اياها (الست جميلا كريم الاخلاق) ؟ فأجابته ببرود وبدون اكتراث . وظن الأمير انها بحاجة لألفاظ معسولة فاسمعها قصيدة كلها مدح بجمالها وحسن قوامها ، ولكن القصيدة وتلك الألفاظ لم تحرك ساكنا من مشاعرها وبقيت على فتورها نحوه .

احتد الأمير لذلك الاغضاء وترك تلك الألفاظ اللطيفة وتاثر ، وأخذ يلقي الكلام على عواهنه . السبب الذي ادى لنفور الحورية عند سماعه ذلك فجمعت قوتها ، وافلتت من بين ذراعيه وهربت للشاطىء ، واندست بين الأمواج تحملها زعانفها الى مأواها في البحر .

احتار الأمير عند ما راى الحورية تختفي عن بصره ، وبقي يتجول في حدائق البرتقال اياما باكيا سوء حظه ، واقسم لان رجعت الحورية لينزلها من نفسه احسن منزلة وليحترمها اعظم احترام .

وارسلت له الحورية كلمة تطلب منه ان يقسم على الا يحنث في يمينه ان هي رجعت ، والا يخون قوانين الضيافة ، فاقسم الأمير بحرارة على ذلك وزاد بأنه سيجعلها سعيدة ويبعد عنها كل مكروه ، وهكذا رجعت الحسناء لحديقة البرتقال عند شاطىء المنشية ، ولكن عند ما رآها الأمير مرة اخرى رجعت له غيرته ولم يستطع ضبط عواطفه تلك وكبح جماحها وافضى لوالده السلطان بما كان من امره طالبا نصحه ، فقال له والده : « اجعل لها كمينا اوقعها به وعند ما ترى نفسها اسيرة لا بد ان تخضع للأمر الواقع فتستسلم لك ! »

وارسلت الرسل للحسناء داعية اياها لزيارة الأمير لحضور حفلة يقيمها على شرفها ، ورجاها الامير الا ترفض طلبه ذلك برفض تلك الدعوة التي كان يتحين الفرص لاقامتها ، وقبلت الحورية طلبه ذلك بمزيد من السرور وبدات رحلتها نحو الجبل حيث قصر السلطان .

كانت الرحلة طويلة ولكن ممتعة حيث كانت الطريق محفوفة بالغابات والحدائق ، وكانت الجداول بخريرها تنساب تحت اشعة الشمس المشرقة .

وقبـل أن تصل الحسناء لقصر السلطان وعلى بعـد قليل منه وقعت في ذلك الكمين الـدنيء الذي نصبه لها الأميـر ، وعند ما اوشك علـى الايقـاع بهـا تخلصت منه كثعبـان المـاء وطـارت لتلقي حمـايتها في البحـر الذي بـرزت منه وبذهابها ذبلت الأشجـار المثمـرة وجفت وتحـولت الأراضي الى صحـراء قاحلـة ، وتلاشت الجـداول بين الصخـور ولم يبـق منها سوى المـاء الأجاج الـذي اصبح لا يكـاد يصلح لشرب الوحـوش ؟ !

أويا تأخذ مكانها تحت الشمس

اذا طرحنا جانبا ما تحدثنا به تلك الأساطير التي نسجت حول ما كان لهذه المنطقة من شمال افريقية عموما من ثروات زراعية وحيوانية وعدنا الى الواقع لنتقصى الحقائق المتصلة بنشأة مدينة طرابلس ، فاننا سرعان ما نكتشف تلك الأهمية التجارية التي كانت لها ، والتي استمدتها من موقعها الجغرافي الممتاز ندرك انه لم يكن من باب الصدفة للفينيقيين ان يقع اختيارهم على منطقة طرابلس بالذات ، وان يؤسسوا مراكزهم التجارية فيما يدعى « بالأمبوريا » في هذه الفجوة ما بين برقة والمغرب حيث يلامس البحر الصحراء مباشرة دونما فاصل بينهما (١) . وقد يجوز للمرء أن يعتقد بأهمية هذه المنطقة تجاريا وذلك قبل مجيء الفينيقيين ، اذ لا يعقل ان يكون اختيارهم لهذه المنطقة بالذات على غير هذا الاساس اليس من المحتمل أن يكون لهذا المكان الذي تحتله مدينة طرابلس الآن من التجمع البشري والامكانيات التجارية – فضلا عن استراتيجيتها الجغرافية – ما يتحقق به الاخذ والعطاء، وما يساعد بالتالي على اهتبال الحركة التجارية؟

على انه ليس لدينا الا القليل جدا من المعلومات التي يمكننا ان نتخذها سندا ينير امامنا الطريق في هذا الصدد ، على انه يمكننا القول بان الفينيقيين كانوا في مبدا امرهم يقتربون من الشواطىء الليبية اقتراب الحذر الخائف (٢) ، ولكنهم بمضي الوقت استطاعوا أن يأنسوا مآنسة

---

(١) ليبيا كما يراها توينبي – من مقال نشر بالرواد – العدد الثاني عشر « نوفمبر » ١٩٦٥ ترجمة علي فهمي خشيم .

(٢) وفي القصة التالية التي وردت على لسان القرطاجنيين ما يعزز احتمالنا عن قيام تلك المعاملات التجارية المتسمة بالحذر . يقول القرطاجنيون ان هناك مكانا في ليبيا حيث يعيش

تدريجية ، حتى اذا ما تم لهم ذلك بـدأوا يـركزون اهتمامهـم على كيفيـة استعمـال هـذه الشواطىء كمـراس دائمـة لسفنهم ، خصوصا بعـد ان حققوا نجاحـا مطـردا لتجارتهم في هذه المنطقـة ، وبـدا انـه في الامكان أن يحققوا منافـع اخـرى على نحـوٍ من الأنحـاء . لذلك نراهـم يسارعون بمـد نفوذهم عليها كخطـوة اولى في سبيـل الاستحواذ على المنطقـة كلهـا ، ومـا اشبـه الليلـة بالبارحـة ، اذ رأينـا بدايـة الاستعمـار الحـديث قد نسج على هـذا المنـوال . وبعـد ان تمكنوا من الهيمنة الجزئيـة على هذه « الاساكـل » شرعوا في أواخـر القـرن السادس قبل الميـلاد في تأسيس الأمبوريـا (٣) الثـلاث : « صبراتـة ـ اويـا ـ ولبتس مانيـا » ، وتـم لهم بسط نفـوذهم فعـلا بعـد ان وضعت المنطقـة بكاملها ضمـن المناطق الأخـرى التي تهيمن عليها « قرطاج » العـاصمة الفينيقيـة في المغـرب .

وكـانت « أويـا » وسطى هذه المـدن الثلاث قـد اخذت تلعب دورها كعنصر نشيط في اسرة « الأمبوريـا » ، وبـدا في امكان العالـم الجديد ان يعـي جيدا تلك الحركـة الدائـرة على شواطئها . ومن هنا فانه بوسعنا القول بأن مدينة « اويـا » مدينـة بوجودها لموقعها الجغـرافي الذي كان يساعـد بشكل او بآخر على تحقيق التلاحم التجاري بينها وبيـن المدن الاخرى الـواقعة في نطاق مـا يسمى « بالآمبوريـا » ، كما اصبحت في وقت مبكر من العصور القديمـة شيئا مثمـرا في عقد صـلات قوية فيما يـدعى بالتجـارة الصحراوية ، وكانت تلعب دورا رئيسيا في تنمية النشاط التجارى داخل افريقية ، ومن هنـا فقـد اعتـاد الفينيقيون ان يأتـوا بأعـداد كبيرة الى « أويـا » وبقيـة

قوم خلف أعمدة هرقل «مضيق جبل طارق الآن» واليه ياتون ويفرغون بضائعهم وبعد وضعها بنظام على الشاطىء يذهبون الى ظهور سفنهم ويوقدون نارا ذات دخان فيرى الاهالي الدخان ، وعند مجيئهم الى البحر يضعـون على الارض ذهبا ثمنا للبضائـع وينسحبون بعيـدا عنها ثم يهبط القرطاجنيون الى البر ويتاملون الذهب، فان بدا لهم ثمنا عادلا اخذوه ومضوا في سبيلهم ، وان لم يكن كذلك ذهبوا ثانية الى ظهور سفنهم ينتظرون ، ويعود الاهالي ويزيدون الذهب حتى يرضى رجال السفينة ، وفي هذه العملية ـ كما يقال ـ لا يخضـع ايما فريـق منهما الاخر . فان القرطاجنيين لا ياخذون الذهب حتى يعادل قيمته سلعهم كما ان الاهالـي لا يمسون البضائـع حتى ياخذ رجال السفينة ذهبهم » .

(٣) « الامبوريا » أو مركز التجارة ، كان هذا الاسم اليوناني الذي عرفت به مدن المستعمرات الفينيقية الساحلية في الفجوة ما بين برقة والمغرب وهي لبدة ـ واويا ـ وصبراتة .

مدن « الأمبوريا » في « انتظار قدوم قوافل الصحراء » (٤) ولشراء ما كان تاتي به من « أشياء مختلفة للبيع أو للصناعة كجلود الحيوانات وريش النعام ، والعاج ، والصمغ ، وغيرها » (٥) .

وقد اشتد ساعد هذا النشاط التجاري بواسطة المدن الليبية حتى بلغ ما كانت تحصل عليه الدولة البونيقية من الأداءات الجمركية من مدينة كلبتس الكبرى وحدها ما قيمته خمسة آلاف فرنك ذهبا ، أي ما يعادل نصف مليون جنيه ليبي على وجه التقريب .

وقد ظلت « أويا » تواصل دورها الحيوي في تنمية وتنشيط التجارة الصحراوية ، وربما زادت اهميتها التجارية تلك بعد ان قام الفينيقيون بتاسيس ذلك الطريق الرئيسي الذي يمتد بمحاذاة الشاطىء وعلى سيف البحر مبتدئا من « قرطاج » ومنتهيا عند « أويا » ، وقد بلغ طول هذا الطريق ٥١٢ ميلا ، ومن المؤكد انه قد اصبح لهذا الطريق اثر كبير في زيادة حجم تلك المعاملات التجارية مع العاصمة البونيقية « قرطاج » فضلا عما يمكن أن يشيعه هذا من أثر في زيادة التقارب وتوسيع أسباب الأخذ والعطاء بين المدينتين ، وأصبح من الواضح ان تلك الطرق البحرية والبرية قد اصبحت بمثابة الشرايين التي تأتي دائما بدماء جديدة ونقية توفر اسباب الحياة ــ بل الرخاء ــ لمدينة طرابلس ، وهي تدخل في طور النشوء والارتقاء !

ومما يؤسف له حقا ان المؤرخ لا يكاد يجد من المستندات التاريخية ما يمكن ان يبنى عليه معلومات ذات بال عن حجم هذه المدينة وعدد سكانها وعن كيفية تحصيناتها ومرافقها العامة الى غير ذلك من المعلومات التي يمكن أن تساعدنا في التعرف على الاوضاع العامة للمدينة في ذلك العهد ، ويبدو انه يكاد يكون من العبث ان نعود الى شيء من آثار المدينة الفينيقية في تلمس مثل هذه المعلومات . فضلا عن كون تلك « الرواسب المتعاقبة من مواد

---

(٤) مدينة المغرب في التاريخ (١) لاحمد صفر ص ١٣٦

(٥) نفس المصدر السابق ص ٧١ .

انقـاضها وحطامها تطمس ـ او كيفمـا شئت ـ تدفـن الطبقات الأثريـة تحتهـا » (٦) ، فان القـرون التي طـوتها ، والعهود التي تعاقبت على حكمها ، ابتداء من الـرومان الى الونـدال والبيزنطيين ، وما كان يأتي في اثـر كل منهم من معطيـات حضاريـة للمنطقـة ، كـل هـذا ، يجعـل من المتعـذر بالنسبة لمدينـة طـرابلس بالخصوص ان نطمع ولو في القليل من تلك المعلومات التي تعيننا على رسم فكـرة عنها ، ويظـل الكثيـر من الحقـائق يحيط بها سحب كثيفـة مـن الغمـوض .

ومهما يكن من أمر فان بعض المعلومات المتصلة ببقايا المدن الفينيقية يمكنها ان تمدنا بما يساعدنا على تصور الوضع الذي كانت عليه . فمن الموثوق به ان مـدينة « اويـا » كانت تتمتع في هـذا العهـد باهمية لا تقل شأنا عمـا كان لسواهـا من المـدن الواقعـة في شرقها او تلك الواقعـة علـى الجـانـب الغـربي منها ، ونحـن نعتقـد انه لولا شعـور الفينيقيين بتلك الأهميـة لما رايناهـم قـد جشموا انفسهم عنـاء ربطها بطرق بحريـة واخـرى بريـة ، اذ لا بـد انهم كانـوا يحصلون في مقابل ذلك على نتائج ذات نفع كبير يزيـد من رخـائهم الاقتصـادي .

ولا يمكننا ان نتصور ايضا ان تلك الحيوية التجارية التي كانت تتمتع بها المدينة في ظـل هـذا العهـد دون ان يكون لها ظهيـر اجتماعي يقوم بدوره في حشد تلك الجهود التي تتناسب مع مقدار تلك الحيوية وما يتركه هذا مـن اثـر أيضا على ازديـاد حجـم ذلك التعـاون بيـن المستوطنين الفينيقييـن وسكان المنطقـة الذين كانوا يلعبون دورا فعالا في تأمين « تجارتهم بمـدهم بيـد عاملـة حازمـة قويـة نشيطة وباجـور غير مرتفعـة » (٧) ، ولا بـد ان يكون ايضا لمثـل هذا التعـاون القائـم بين المستوطنيـن الفينيقيين الجـدد وسكان المنطقـة ـ سواء ذلكم الذين يعيشون بداخـل المـدينة او الذين يعيشون فـي المنـاطق المحيطـة بها ـ ان يثمـر نتائجـه فـي بنـاء الروابط البشرية بينهم ، وذلك بحكم احتياج كل طرف للآخـر ، ويمكننا ان نتصور ما تفرضه

(٦) ليبيا كما يراها توينبي ـ نفس المصدر السابق .
(٧) مدنية المغرب ـ احمد صفر ٧٢ .

ظـروف الحيـاة بالـمدينة من المقتضيات الاجتماعيـة المتصلة بهـا ، وبناء عليه فانــه لا يستبعد ان تظهـر وشائج قويـة في هـذا المجتمع البونيقي الجديـد ، بحيث يكون لمثـل هذه الوشائج ظـل في العلاقـات الخـاصة والعامـة . ونحن نرجـح ان ذلكم المستوطنين من الفينيقيين كانوا « يتزاوجون ببنات افريقيـات ويختلطون بالسكان المحليين ويتزاورون » (٨) ، وان قيـام هذا المجتمع علـى هذا النحو من التعـاون المشترك قد جـاء بنتائج مفيـدة ونافعة للطرفين .

ومما يقـال عن الفينيقيين في بقيـة المناطق المغـربية الداخلـة تحت نفـوذهم يمكن ان ينسحب عليهم في بقيـة المناطق الأخـرى فمن الـواضح ان ذلـك التعـاون الاقتصادي قـد سـاعـد « على تدعيـم العلاقات الليبية الفينيقيـة ليس فقط في المجال الاقتصادي ولكن ايضا في المجـال الحضارى . لقد بدأ الليبيـون يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية والتجارية الجديدة مما دعـم قدراتهم وساعد على تطورهم ، وكذلك تاثر الفينيقيون الليبيين وتقـاليـدهم وعقائـدهم ، وهذه الظواهـر سرعـان ما تصل الى قمتها في اثنـاء العصـر القرطـاجـي » (٩) .

ويمكننا ان نضيف الى هـذا ايضا ان تلك الحيوية التجارية التي اصبحت لمدينة « اويا » لا بد ان يكـون لها ضلـع في ازديـاد حجم ذلك التجمـع البشري وذلك تبعـا لحاجـة هذه البيئـة الى الأيـدي العاملـة والى تسخيـر الجهـود في سد حاجـة هذا النشاط وتـدعيمه بالقـوى العاملة في كل ناحية من نـواحيـه ، وهذا يعنـي على اقـل تقديـر قيام مجتمع مستقر بالـمدينـة ، ومثـل هـذا المجتمع لا بـد له من ظهير زراعـي يوفـر له حـاجته من القـوت ويمـده بالغـلال اللازمـة لمعـاشه . فمن « الثابت ان سكان المناطـق الشمالية في ليبيـا كانوا ـ بعـد ان استقروا بهـا ـ قد عـرفوا الزراعـة منـذ وقت مبكـر ، حتى ان الفينيقيين عند ما نزلـوا سواحـل ليبيا في اقليم طـرابلس حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، والاغريق عندمـا حلوا باقليـم برقة في القـرن السابـع قبـل الميلاد وجـدوا الزراعـة مزدهـرة وعملوا على تحسينها

---

(٨) نفس المصدر ص ٧٢ .

(٩) المغرب الكبير (١) رشدي الناضوري ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

ولفادوا من نشاط الليبيين الاوائـل » (١٠) . لذلك فاننا نعتقـد ايضا ان مدينة « اويـا » كانت مدينة بوجودها ايضا الى ذلك الظهيـر الزراعـي الذي اوجـده الفينيقيون بالتعاون مع سكان المنطقة ، وكان في امكان المستوطنين الجدد ان يدعموا النشاط الفلاحـي خصوصا بعـد ان مدوا نفوذهم الى داخـل البلاد .

على اننا وان كنا لا نعتقد بقيام نشاط زراعي كبير ، الا اننا لا نشك لحظة واحدة في أن مثل هذا النشاط كان من ادعى الامور ضرورة بالنسبة لانتعاش مدينة « اويا » ، بل لا يمكننا ان نتصور قيام ذلك التجمع البشري حول المناشط التجارية فيها دون دعم من ذلك الظهير الزراعي .

---

(١٠) الليبيون في تاريخهم القديم — مقال نشر بالـرواد « نوفمبر » ١٩٦٥ — للدكتور كمـال عبد العليـم .

أويا تدخل فى فلك الامبراطورية الرومانية

بما اننا نود ايقاف هذا البحث على استقصاء الوضع العام الذي كانت عليه « مدينة طرابلس » في العهد الروماني أسوة بما فعلنا من قبل بالنسبة للمدينة في العهد الفينيقي ، فانه ينبغي علينا بادىء ذي بدء أن نستهل هذا البحث بمقدمة موجزة نشرح فيها تلك الظروف التي احاطت بقيام ذلك الصراع الدامي الذي دار سجالا بين الرومانيين والقرطاجيين ، وما ترتب عنه من نتائج ذات أثر بعيد على مستقبل المنطقة البونيقية كلها ، فقد بات من الواضح ان الفينيقيين لم يعد بامكانهم أن يهنأوا بذلك الاستقرار الذي تمتعوا به لقرون طويلة ، وذلك منذ ان ظهرت (روما) كقوة عسكرية لها وزنها الكبير في حوض البحر الأبيض المتوسط وقد زاد من قوة شوكتها انها استطاعت في وقت قصير ان تضع زمام الأمور في يدها وأن تقضي على الانقسامات الداخلية وتوحد صفوف ابنائها ، كل هذا قد ساعد الرومان على تحقيق تطلعاتهم في القضاء على تلك السياسة الحربية والاقتصادية التي كان يتمتع بها القرطاجيون في غربي البحر الأبيض المتوسط .

وقد وضعت تطلعاتهم تلك محل اختبار وعمل في ذلك الصراع الحاد الذي نشب فوق الاراضي الايطالية ، وبالضبط فيما يسمى اليوم بصقلية ، حيث احتدم النزاع حول تواجد كلا الجانبين على مسرح النفوذ بالجزيرة ، ومن ثم بدات رقعة ذلك النزاع تتسع رويدا رويدا حتى شملت مناطق كثيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط ، واخذ ذلك الصراع يحتدم بين الطرفين في حروب ثلاث ، وقد شاء القدر في الحرب الأخيرة ان يضع نهاية لذلك الصراع الدموي المسلح بسقوط مدينة قرطاج في ايدي الرومان حيث تمكنوا ـ وبطريقة دراماتيكية ـ من ازاحة النفوذ البونيقي من المنطقة كلها وحلوا انفسهم محله ، وبهذا دخلت طرابلس اوتوماتيكيا عام ١٠٦ ق.م

في ظل النفوذ الروماني ، حيث أصبحت ولاية نشيطة من ضمن ولاياتهم في شمال افريقية .

وببداية العصر الروماني في المغرب تأتي مرحلة جديدة في تاريخه تختلف كل الاختلاف عن المراحل السابقة . فبينما يلمس الدارس في المراحل السابقة امتزاج العناصر الفينيقية الأصل مع العناصر المغربية القديمة ـ وهي العناصر البربرية ـ امتزاجا سلميا لحد كبير كما يتمكن الفينيقيون من احداث النقلة الحضارية والاقتصادية في مجالات الزراعة والتجارة والفكر الديني والسياسي في تلك المجتمعات المغربية القديمة ، يلاحظ أن العصر الجديد وهو العصر الروماني يختلف تمام الاختلاف عن تلك المرحلة التي سبقت الاشارة اليها ، فالمرحلة الجديدة تنتهي الى عنصر يرجع في اصوله الى عائلة الشعوب واللغات الهندية الأوروبية ، فهو يختلف عن عائلة الشعوب واللغات السامية والحامية التي ترجع في أصولها الى شبه الجزيرة العربية » (١) .

وعليه فان مستقبل المنطقة بدأ رهينا بظروف حضارية جديدة ، تلك التي جاءت في أثر الاحتلال الروماني ، وقد وجدنا أن البعض من تلك المواضعات الحضارية قد انعكس ظلها في اكثر نواحي الحياة وامتد اثرها حتى شمل كل شيء تقريبا ، غير أن ذلك التحول طرا ـ بحكم التاثيرات الرومانية ـ قد بدأ على اشد ما يكون الوضوح في النواحي العمرانية ، واذ كنا نلاحظ ان اهتمامات الرومان قد توسعت كثيرا في تركيز جزء كبير من نشاطاتهم العمرانية بالدواخل ، الا انهم لم يغيروا مواقع تلك المدن الساحلية التي وجدوها باساساتها البونيقية ، ومع ذلك فللمرء الحق في أن يقول بأن هناك عوامل خفية واخرى ظاهرة قد تدخلت في رسم مستقبل تلك المدن بحسب ما تمليه الظروف الحضارية الجديدة . ومن هنا فقد راينا أن البعض من تلك المدن قد توارت خلف سمعتها القديمة ولم يكن لها من اهمية تذكر سوى ما كان لها من شهرة سابقة (ومثل هذا ينطبق بالضبط على مدينة

(١) تاريخ المغرب الكبير ـ الجزء الاول ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ ـ د. رشدي الناضوري .

كقرطـاج التي اخفق الرومان في ان يعيدوا لها سمعتها التجاريـة القديمة) ، غير أن البعض الآخر من المدن قد دبت في أوصاله الحياة وزاد مقدار حظه في النشاط يوما بعـد يوم ، واضح من هـذا أن الحظوة التي تمتعت بها بعض المدن قد جـاء على حساب بعضها الآخـر ، ومهما يكن من امـر فان ما نستطيع القطـع بـه ان « اويـا » لم تكن ضمن تلك المـدن التي سـاء حظهـا ، بـل بالعكس من ذلك اذ نراها قد اصبحت احدى المدن الليبية التي اتجهت اليها الانظـار وفازت من هـذا العهـد بالاهتمـام الشديـد ، ويبدو جليـا ان تلـك العوامـل التي احيطت بالحيـاة الاقتصادية لم تؤثر كثيرا على اهمية مدينـة « اويـا » ، اذ استمرت بالرغم من كل شيء في القيام بدورها القديم كـوسيط مهـم في التجـارة الصحراويـة ، كما استمرت ايضا تلك القوافـل المشحونـة بالعـاج والذهب وخشب الأبنوس وريش النعـام والعبيد في احضار بضائعهـا الثمينـة ، ومن ثم يتـم شحنها عبر مينـاء المـدينة حيث تجـد طـريقها بعـد ذلك الى رومـا وجنوب غـربي اوروبـا .

ولم يكن اتجـاه الأنظـار الى مدينة « اويـا » في هذه الفترة من فتـرات التاريخ قد جـاء بمحض الصدفـة ، بل يعـود الفضل في ذلك الـى الموقـع الاستراتيجي الهـام الذي تمتاز به المدينة داخـل مجموعة « الأمبوريا » فهـي فضلا عن وجـودها في منتصف الطريق ، تقريبـا ، بيـن مـدينتي « لبتس مانيـا » و « صبراتـة » فانها فضلا عن ذلك تستطيع أن تهيمن مـن الناحيـة الادارية على بقيـة مـدن المجموعـة ، ومن هنا فان اختيـار المـدينة لتكون عـاصمة لمقاطعـة طـرابلس بـدا منسجمـا تمام الانسجام مع تلك الحيثيات الاستراتيجيـة التي اشرنـا اليها ، وقد تمت هذه الخطوة فعـلا في اثـر الاصلاحات الكثيرة التي ادخلها الامبراطور الليبي الاصل سبتيموس سيفيروس (١٩٣ ــ ٢١١ م) وذلك في وقت مبكـر نسبيا ، وان شئت التحـديد فقد تمت هـذه الخطـوة في « الطـور الأخيـر من الفتـرة قبل الخمسين سنة التي سادت فيهـا الفوضوية في العقـود الوسطى من القـرن الثـالث لميلاد المسيـح » . (٢)

ولا بـد من الاشارة هنـا الى ان القيـام بمثل هـذا التحـول في طبيعـة

---

(٢) ليبيا كما يراها توينبي

الـوضع السائـد بين مـدن الأمبوريـا الثلاث منذ العهـد البونيقـي لم يكـن من السهـل تحقيقـه لو لم تكن هناك اسباب قويـة قد تدخلت لتفرض نفسها على الجميع ، واذا كنا نـرى ان قـدرا كبيرا من تلك الأسباب كامن في صلـب الـوضع المتـاز للمدينـة ذاتها ، الا ان قـدرا غير قليل من تلك الأسباب قـد جـاء على شكل دعـم قد تلقته المـدينة ضمن اطـار تلك الاصلاحات التي قـام بها الامبراطور سبتيموس سفيروس ، فبفضل تلك الارادة الصلبـة والاحساس القـوي بالواجب تجـاه الوطـن الذي ولـد فيه ومشى صغيرا على اديمـه ، بفضل ذلك كلـه استطاع ان ينصف وضع المـدينة وان يحقق لها تكامـلا في مضمون الوجود ، ولا بـد من ان نشير هنا الى ان ذلك القدر الكبير من الاهتمام الذي خصت به مدينـة اويـا « التي اضحت الآن تعرف (بتيري بـولي) بعـد ان اصبحت المـدينـة الـرئيسية في المقاطعـة » قد اثـر على اهمية المدن الأخـرى داخـل مجموعـة الأمبوريـا حيث خفت نفس التجـارة تدريجيا مـن مـوانىء لبتس مانيـا وصبراتـة واخـذ يتركـز في مدينـة طـرابلس ، وهكذا ننتهي الى ان ذلك الاهتمام بمدينـة طـرابلس قد تـم على حساب المدن الأخرى المجـاورة . ويبدو ان ازدهـار « مدينـة طـرابلس » وبقية المـدن بالمقاطعـة قـد بـدأ يجـد ظهيـرا آخـر فضلا عن الظهيـر التجاري الذي تحدثنا عنـه ، فقد وجـدنا ان ذلك النقص الذي ترتب عن توقف النشاط التجاري البونيقـي في المنطقـة قد استطـاع الرومـان ان يعـوضوه في الجـانب الفلاحـي عند ما نجـدهم قد ضاعفـوا ذلك القدر من النشاط الزراعـي الذي كان في المنطقة على ما كان عليه الحـال في العهـد البـونيقـي ، والحقيقـة فان الرومان قد بذلوا جهـودا جبـارة في استثمـار خيرات الأرض باستصلاحها واستنباتها ، ولا تـزال آثـارهم باقيـة تشهـد على علـو تلك الهمة التي اتجهوا بها الى خدمـة الأرض ، ويبـدو ان الأرض كانت تعـرف كيف تكافئهم من خيراتهـا بالشيء الكثيـر . وقد كانت الأرض ـ كما هـو الحـال في معظم بلاد المغـرب ـ تمتاز بتربتها الغنيـة بالمـواد الأوليـة الصالحـة للزراعـة ونعنـي بذلك (كثـرة وجـود الفـوسفات في التربـة بكيفيـة طبيعيـة حتى ان المـؤرخين كـانوا يقولون بان الحبـة الواحـدة كانت تنبت باقـة من ٤٠٠ ساق) (٣) ، واذا كنا

---

(٣) احمد صفر ـ مدنية المغرب العربي ص ٣٢٥ .

لا نميل كثيرا الى تصديق هذه الرواية المبالغ فيها ، الا انه بوسعنا ان نقول ان الأرض كانت بكرا في معظمها ، وكان في امكانها ان تعطي المزارعين ما يفيض عن حاجتهم ومن المؤكد ان تلك السياسة المكرسة لتنشيط الزراعة قد أوجدت في نهاية الأمر ظهيرا قويا لميناء مدينة طرابلس فاصبحت معظم تلك المنتجات الزراعية (واهمها القمح والشعير وزيت الزيتون وبعض الفواكه والخصروات) تجد طريقها عبر المدينة ومن ثم تتجه بها السفن الى روما وبقية انحاء الامبراطورية الرومانية . شأنها في ذلك شأن البضائع الصحراوية التي تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل .

وقد تظافرت الجهود التجارية مع الجهود الزراعية في ايجاد ظهير قوي للحياة التي تتطلبها مدنية مزدهرة ، واذا جاز لنا أن نستعين بما توافر لنا من معلومات حول نوعية تلك المجتمعات التي كانت تعيش في المدن الرومانية بالمغرب ـ فاذا جاز لنا ذلك فانه يكون بامكاننا عندئذ أن نتصور الوضع في مجتمع مدينة طرابلس ، ان اقل ما يمكن ان نتصوره هو ان قيام تلك النشاطات (سواء في مجال التجارة او الزراعة أو غير ذلك من النشاطات الأخرى) قد ساعد على ايجاد مجتمع حضري بالمدينة وان اختلاف دور الأفراد في هذا المجتمع ، بحسب اقدارهم ومقدراتهم ، قد نشأ عنه تجمع طبقي على شكل هرم فيه الغني وفيه متوسط الدخل وفيه الفقير وقد كان الرومانيون (ويجب ان نأخذ في الاعتبار التفريق بين الرومانيين بحكم الأصل والرومانيين بحكم التجنس وذلك بعد أن أصدر ابن سبتيموس سيفيروس ـ كراكلا (٢١١ ـ ٢١٧ م) دستورا يقضي بمنح حق المواطن الروماني لجميع رعايا الامبراطورية الرومانية ـ من أبناء الجالية الايطالية) يلعبون دورا كبيرا في تنمية مواردهم ولا بد أنهم كانوا يفوزون ـ شأن كل ابناء المستعمرين دائما ـ بنصيب الأسد من خيرات البلاد ويمكننا ان نبني معلومات موثوقا بها عن دخولهم وذلك اذا احتكمنا في ذلك الى البذخ الواضح في المعالم الاثرية الباقية بمدينتي لبتس مانيا وصبراتة فقد كانوا (ينفقون جزءا كبيرا من ثرواتهم في سبيل ترتيب بيوتهم وتنظيم مدنهم وان أفراد الطبقة الأرستقراطية من الرومانيين او الأفريقيين كانوا يقيمون بالمدن والعواصم ويقلدون روما في نظامها ورفاهيتها وعظمة

بنائهـا (٤) ، ولا بـد كذلك من أن يلعب الليبيون دورا حيويـا في هذا المجتمع فقـد اشتهـر الأفريقيون عموما بكثرة قابليتهم للاستفادة والتماثـل فبمجـرد اختلاطهم بالرومـانيين ساروا بخطى سريعـة في طريق الحضارة والمـدنية واصبحوا لهم (اي للرومانيين) خير اعوان لاحياء البلاد بالحرث والزرع (٥) كل هذه العوامل مجتمعة ساعـدت على ايجاد ظهيـر تستند اليه الحياة المدنيـة بطـرابلس .

« ولم تقتصر الحضارة الرومـانية في المغـرب ـ وينطبق هـذا ايضا على ليبيـا ـ على تلك الجـوانب السالفـة الذكـر بـل لقـد حـاول الرومان ايضا نشـر الثقافـة الرومانيـة بكافـة الوسائـل في المجتمـع المغـربـي ، فقـد اهتـم الرومان بفرض اللغـة اللاتينية في البيئـة المغـربية ، ولكن لم يتحقق ذلك بصورة عالية من جانب الليبيين الذين استمروا على استخدام نهجـاتهم القديمة المتأثـرة باللغة البونية ، وفي المجـال الديني حـاول الـرومان ايضا فـرض دياناتهم في المجتمـع الغـربي القديـم وعلى راسها عبادة الامبراطور الرومـاني » (٦) . « وكذلك ظهـر بعض الأدبـاء المسيحيين في المغـرب فـي ذلك الـوقت مثل اغسطين ، مما يؤكـد تواجـد جـانب فكـري فلسفـي فـي المغـرب » (٧) . وقـد اثمـرت الحيـاة الثقافية في طـرابلس ثمراتها المرجوة فبلغ ابناؤها بواسطـة ما توافـر لهم من فرص التثقيف ـ اخطـر المنـاصـب في الامبراطـورية الرومـانية ، فكان منهم اباطـرة وقواد لهم وزنهم وتأثيرهم القـوي في رسـم السياسة العامـة للدولـة الرومـانيـة .

تحـدثنا فيما سبق عن علاقـة الرومـان بمدينة طرابلس كما اجملنا القـول في الاسباب الـداعية لقيـام تلك العلاقـة من جانبهم كما تطـرق حـديثنـا ايضا عن اهـم النشاطات التي كانت تقوم بدورها الرئيسي في ازدهـار المدينة وحـان الـوقت الآن لنتحدث عن بعض الجوانب المتعلقـة بالشكل العـام التي

(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٢٥ .
(٥) نفس المصدر السابق ص ٣٤٩ .
(٦) تاريخ المغرب الكبير ص ٣٤٣ ، د. رشدي الناضوري .
(٧) نفس المصـدر ص ٣٤٢ .

كانت عليه مدينــة طرابلس الــرومانية ، وذلك من خلال ما اجتمـع لنا من معلومات تاريخية واثرية عنها .

لم يبـق من مدينــة طـرابلس الرومانية من الآثـار البادية للعيان ما يمكن أن نقيـم عليه معلومات مستفيضة عن هيئتها وتخطيطها ونهضتها المعماريــة! كما هو ممكن دائما بالنسبة لمدنتي (لبتس مـانيـا) و (صبراتة) ، ومع ذلـك فان بعض ما توفـر لدينا من معلومات أثريـة يمكنه ان يلقي بصيصا من النــور على بعض النواحـي الـرئيسية من تخطيطها العـام ، « فما زال تخطيط اويـا على هيئــة مستطيــل ينعكس على تخطيط المـدينة القديمة الحاليــة ، ويمكن أن نتعرف فيها على (الكاردو) و (الديكومانوس) (اي الشـوارع الرئيسيـة التي تتقاطع في قلب المدينة) بقــرب الجزء الشمالي فيهــا ، وذلك قيــاسا على الشوارع الطويلــة التي تتجمع كلها عند قوس ماركوس اوريليــوس مــن جنــوب شرقي بــاب الحريــة والجنوب الغـربي من الشارع الكبير ثم نتعرف على (ديكومانس) آخــر اقرب الى الجنوب ، ما زالت زنقــة الحرارة في مكانها الاصلي ، وقد اكشفت بالقرب من مقر برج التراب جـزء من ساحــة رومانيــة للنزهــة تمتد بموازاة هذين الشارعين ، كذلك ظهرت بعض آثــار رومانية في عـدة اماكن بمنطقة المـدينة القديمة وبجوارها مباشرة ، وقد اكتشف بين الباب الجديــد والبحــر منازل ارضيتها بالفسيفساء وجـدرانها مـزدانــة بــرسوم ملونــة ، ومبنى معبـد بجـانب شمال غـربي ساحة النزهة مبني ربما كــان منزلا خاصا قبالة البحــر بالشمــال الغربي من الســراي الحمــراء . كما اكتشفت افــران لأوان من الفخـار تحت محطـة توليـد الكهرباء ، وكشفـت الحفريــات تحت السراي بالـذات عن آثـار لجـدران اساساتها مـن حجـر رملي كشفت ايضا عن قطـع كثيرة لبلاط من فسيفساء واعمـدة كبيرة غورنتيــة بسيقــان من (الشبيلينــو) ، ويبـدو أن هـذه البقعـة كانت مقرا لمبنى عام كبيـر لعلـه كان حمامــا ، ومن العسيـر تحديد المساحـة التي كانت تقوم عليها المـدينة الرومانيــة ، لكن المعتقـد ان السور القديـم كان يمتد على نفس الخط الذي قــام عليه السور الاسلامي وقـد تهـدم اغلبـه حاليا ، وكــان يمـر مــن البــاب الجديد الى بــرج الكرمــة حيث شارع سيدي عمران ثم يتجه الى الشمال

الشرقـي حيث دار البارود ، ويظن الأثريون بكثير من الشك انهم كشفوا عـن بوابـة رومانية بالقرب من باب الحريـة (٨) .

ومما تقدم يتضح لنا ان مدينـة طـرابلس الرومانية كانت في حجم ما يسمى الآن بالمدينة القديمة حيث يضع السور الاسلامي المتبقي في معظـم اجزائـه ـ العلامـة المميـزة بين المدينـة الحديثـة والمدينـة القديمـة ، كذلك فان تخطيط المـدينة في مظهـره العـام قـد جـاء وفق الخطط المعمارية التي وضعها الرومان في بناء مدنهم حيثما كانت ، وبما ان المـدينة قد اختفت بكامـل معالمها تحت المدينة الحديثة فانه اتماما للصورة كما نتمثلها في اذهاننا لـمدينة طرابلس ينبغـي ان نشير الى انها لا بـد انها كانت تستوعب قدرا كبيرا من مساحتها ، تلك المرافـق العامـة كالحـوانيت والمكتبات والمعابـد والحمامـات والأسواق وغيـرها من المـرافق الأخرى التي تتطلبها الحيـاة العامـة ، كذلك فانه بامكاننا ان نضع شيئا من الرتـوش على هذه الصورة فنتصور كيف كـانت المـدينـة تعج بالحركـة وتمتلىء طرقاتها الـرئيسية والفرعية بأفـواج النـاس الغاديـة والرائحة بين اسواقها وحماماتها ومعابدها ومكتباتها العامة،ويمكننا ان نتصور ايضا كيف تتصارع اقـدار الناس في محاولاتهم لرسم نشاطهم ولا بـد كذلك لمثـل هذه المدينة التي احتـوت كافـة العناصر الرئيسية للخدمات العامـة من مباهـج كما كان لها دائمـا في مختلف العهود التي تعاقبت عليها ، واذا كنـا اليوم لا نملـك تحت أيدينا ما يعزز ــ تعزيزا قـويا ــ فكـرتنا عن مظاهر الفخامة التي كانت تتمثل في مبانيها وداراتهـا ومرافقهـا العـامـة الا انـه بـوسعنا ان نجـد في قـوس ـ ماركوس اوريليوس ، المتبقي بكامـل هيئته تقريبا ــ بعض ما يعـزز تصورنا عن مظهـر الرفاهية التي كانت لأبنتيها الأخـرى المندثـرة ، ونظـرا لأن ذلك النصب التذكاري المتمثل في هذا القوس هـو الشيء الوحيـد المتبقي من آثـار المـدينة الرومانيـة فاننا قـد عزمنا على تخصيص الفصل القادم للحـديث عنـه .

---

(٨) هاينز . طرابلس الغرب ص ١٠١ ، ١٠٢ ــ الطبعة الانجليزية ــ

قــوس ماركوس أوريليوس

الأثر الرومانى اليتيم

في منطقة بــاب البحــر وبقرب جامــع قورجي الشهيــر ، ونقطــة شرطــة الجهــة الشمالية الغربيــة من المــدينة القديمة يوجد قوس ماركوس اوريليوس . وهو الشيء الوحيــد الذي تبقى من مدينــة طرابلس الرومــانية ، وقــد بلغت شهــرة هذا القــوس حــدا استطاع معــه ان يجتــذب الأنظار وأن يثير بواعث التأمــل في نفــوس المفكريــن والمؤرخيــن واصحاب الرحلات حتى لا يكاد يخلو ذكره من كتاب يمس الناحية التاريخية لمدينة طرابلس ، وكان الرحالة العــرب من اول السابقين الى تسجيــل انطباعاتهم عن القــوس ، وهي انطباعــات لا تخلــو من الاعجــاب الذي كانوا يستشعرونه حياله ، الا ان ما ورد في كتاباتهم لا ينطــوي الا على قــدر قليــل من التقويــم العلمي اذ انحصر جــل اهتمامهم في الناحيــة الوصفية لــه ، ولا نكاد نجــد فيه ـ فضلا عن حرارة الاعجــاب ـ ما يضيف اي جديد يذكر في باب التعريف بالقوس .

فمن هــو ماركوس اوريليوس الذي يخلــد اسمه هذا النصب التــذكــاري الــرائــع ؟

يتردد اسم ماركوس اوريليوس في كتب التاريخ كواحــد مــن الأبــاطــرة الرومانيين الذين تقلــدوا شؤون الحكــم فيما بين عــام (١٩٦ ـ ١٨٠) وذلك بالاشتراك مع لوكيوس اوريليوس فيــروس عبر المرحلــة التي تــولى فيهــا شؤون الحكــم عــدد من الأباطــرة الذين تميــزوا بالكفايات علــى خــلاف الطريقة التقليدية التي كانت تعتمد على مبدأ الوراثة في الحكم وتشير تلــك الكتابــات المتبقيــة على واجهــة القــوس الى ان القنصل سرفيوس كورنيلوس اورفتوس مع قائده فيدوس مارسلوس كرسا القوس للقيصر الامبراطــور

١ ـ قوس ماركوس اوريليوس على نحوما كان عليه منظره في سالف عهده

ماركوس أوريليوس انطونيوس ابى بلاده وللقيصر الامبراطور اورليانوس فيــروس امرميناكوس اوغسطس .

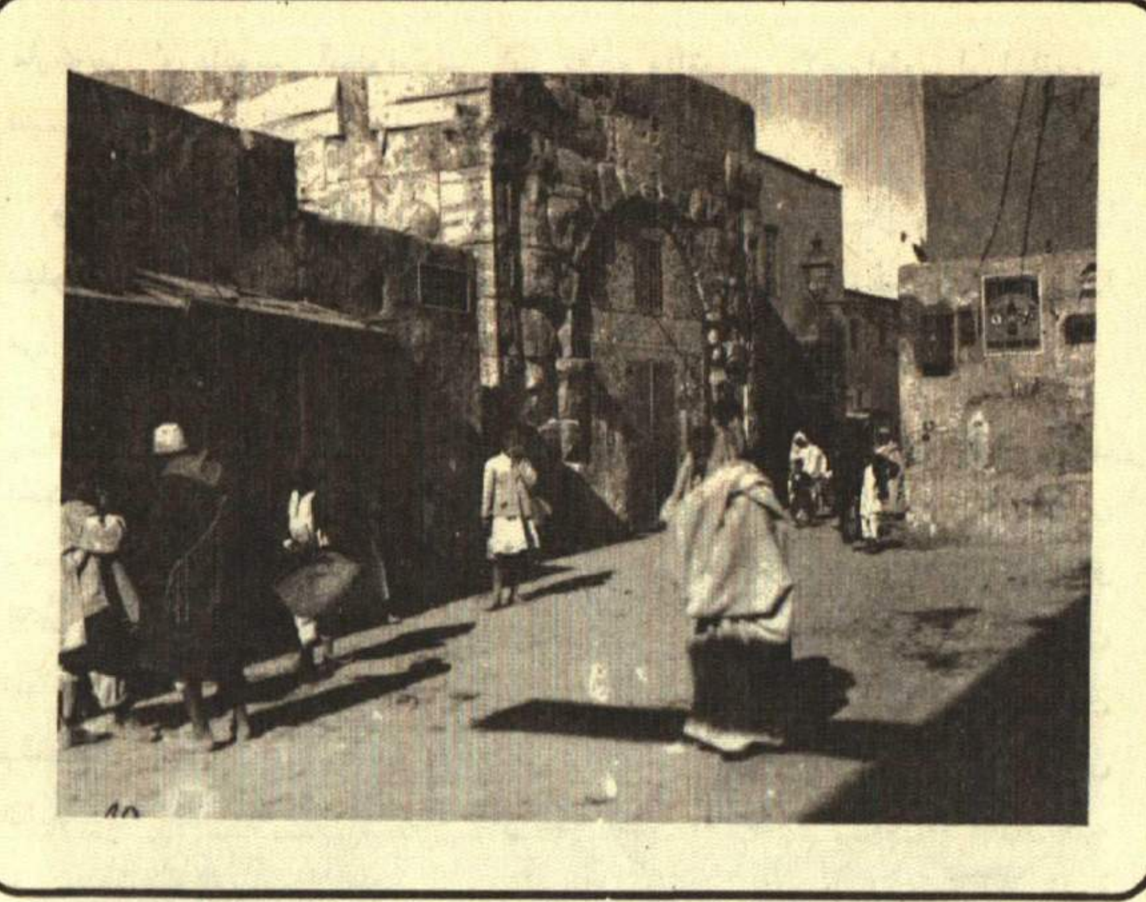
واشاد كايوس كالبرنيوس سيلسوس أميــن بيت المــال ومانح العطايا ديفومفر المكرس كاهنا منذ خمس سنوات الى مدى الحياة ، قوس النصر هذا في مكان عام من رخام صلب الأساسات على نفقته (١) .

ويحتــل القــوس المكان الــذي (يتقاطع فيه الشارعان الــرئيسيان الــى المــدينة بــزوايــا قائمــة ، ويشيــر فارق طول الجانبين الشمالي والشرقي والجنــوب الغــربي - وهما اكبر طــولا - بأن الطريــق من الميناء كــان هــو الأهم) (٢) . ويشتمــل القوس على اربع فتحــات كبيرة اهمهــا الفتحتان المطلتــان على الناحيــة الغــربية والشرقيــة ، ومن الملاحظ انــه يوجد فــارق بالنسبة لديكــور الرسوم الموجودة على واجهــاته الأربــع فعلى (الــواجهتين الشماليــة الشرقية والجنوبيــة الغربيــة تعلوهما رسوم وزخارف معمارية ، ففي هذين الجانبين يحف بجــانبي المرات المعقودة أزواج من الأعمدة الكورنثية قائمــة فوق قواعــد عالية تبــرز من قوائــم القــوس ، وتحمــل الأعمدة علــى تيجــانها العــرصة الهرميــة وواجهــة القــوس) (٣) كما توجــد بتلك الكوات المطلــة على الــواجهتين الأخريين رسوم وزخارف تمثل صورة (لأبوللو) الــه المــوسيقى و (مينيرفــا) حاميــة اثينــا .

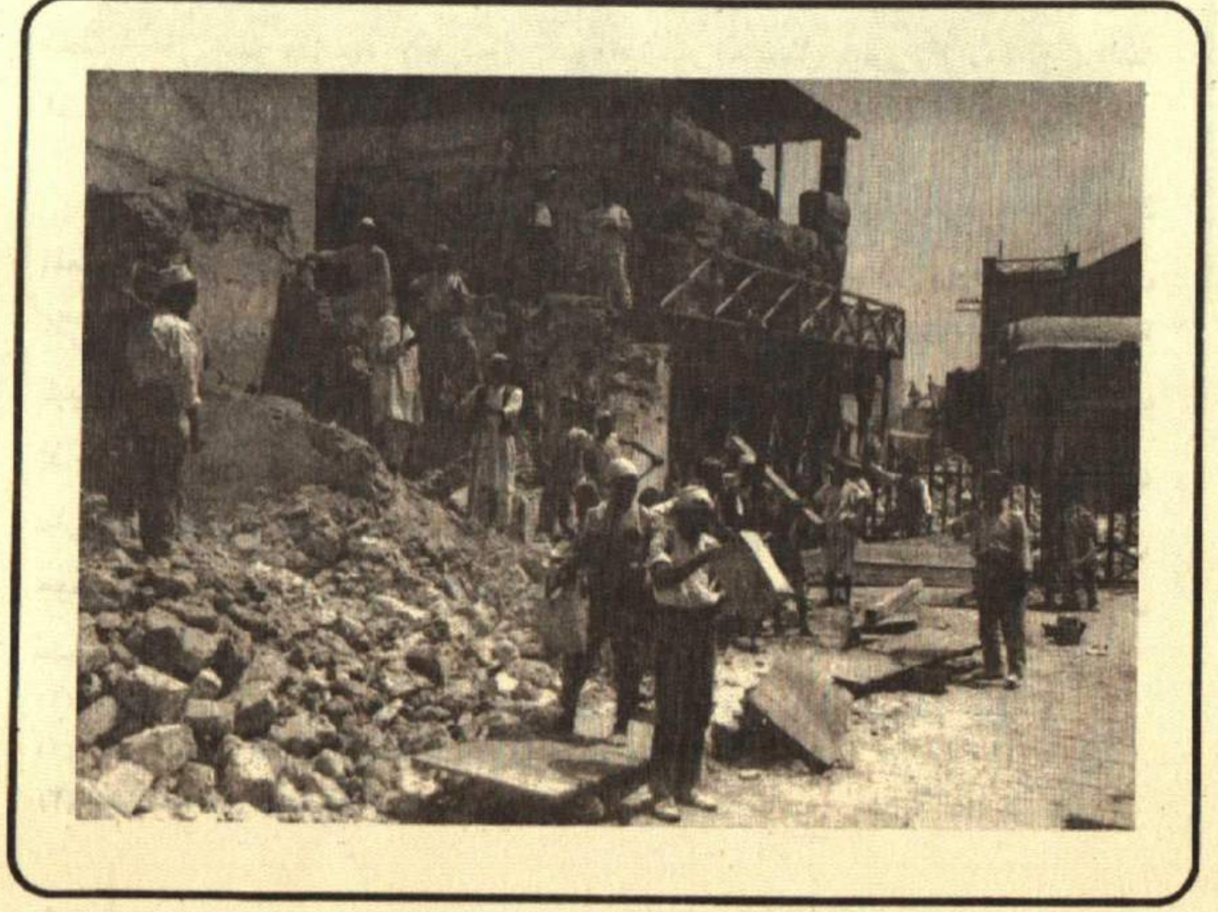
وقــد جــاء تصميــم القــوس على خــلاف ما هــو شائــع في العــادة ، اذ المعــروف أن أقــواس النصر التي تشيــد في مداخــل المــدن الرومانية تشتمل على فتحــة واحــدة أو ثلاث فتحــات او فتحتين صغيرتين تتوسطهما فتحــة كبيرة غير أن قوس ماركوس اوريليوس قد خرج في تصميمه عن المألــوف اذ اشتمــل على اربــع فتحــات كبيرة وهــذا ما جعــل البعض يعتقد بأن قوس ماركوس اوريليوس هو (اجمل من اي آثــار مماثلــة لــه في ايطــاليــا مثــل هيكــل « يانــوس » مع أن الهيكــل مشيــد من الرخــام ، ويعتبر من اجمــل

---

(١) حاشية وردت في كتاب اسرار طرابلس ص ٨٧ مابل تود ترجمة عمر ابو حجلة .
(٢) آثار طرابلس الغرب الطبعة الانجليزية د. ا. هاينــز .
(٣) نفس المصــدر السابــق .



٢ ــ قوس ماركوس اوريليوس استعمل قبل ترميمه والكشف عن اساساته كدار لعرض الصور المتحركة ومحلا للبيــع



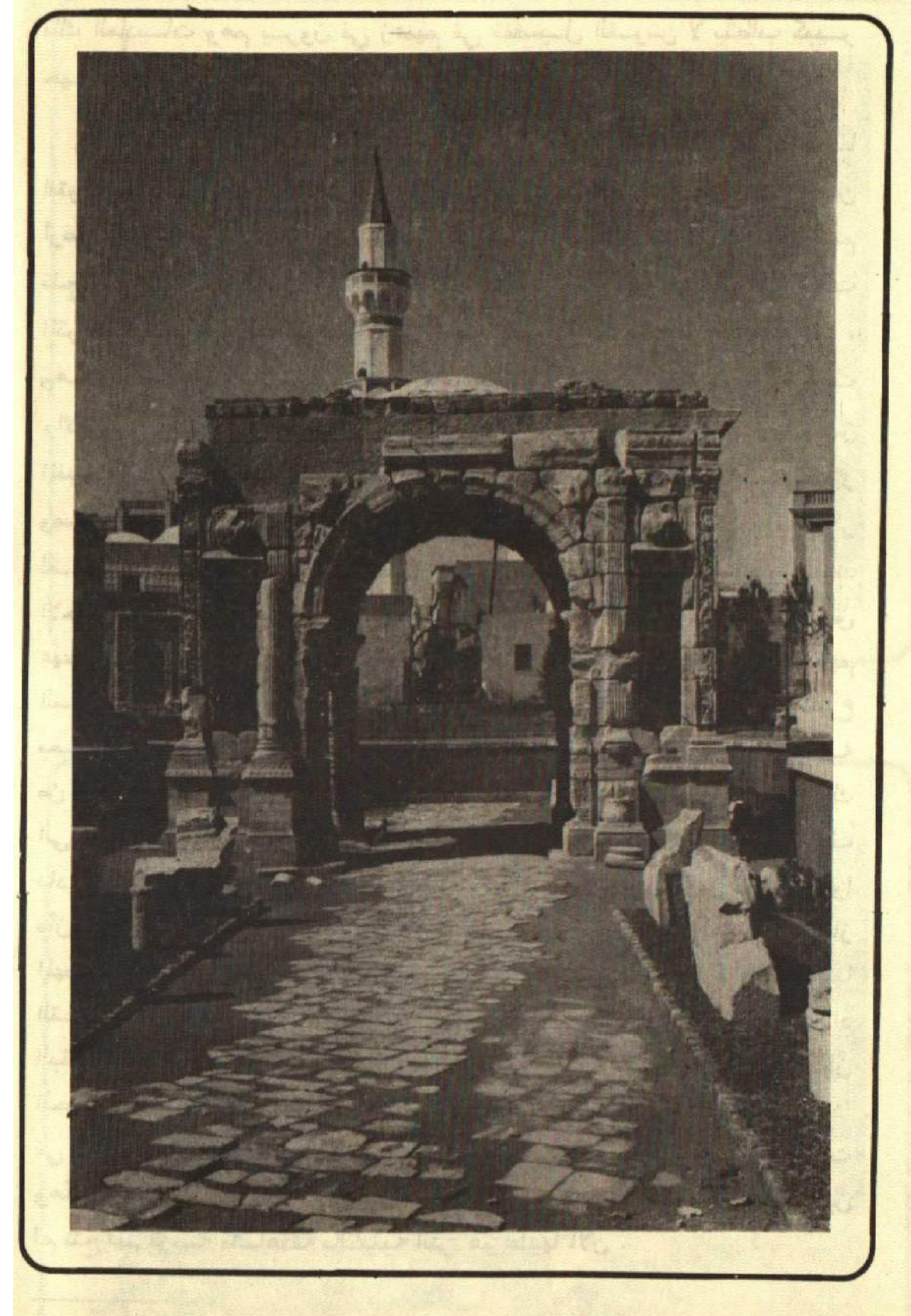
٣ ــ قوس ماركوس اوريليوس في مرحلة الترميم والتشييد

تلك العاديـات وهم يـرون في زعمهم في تفضيـل القـوس لا يتطلب كبيـر جهـد في البرهنـة عليـه) (٤) .

وقـد اقتضى الحـال حـدوث تغييرات كبيرة في المنطقة التي شيـد فيهـا القوس .. منازل اقيمـت واخرى اندثرت وغمرت ميـاه البحر اجـزاء من أرض المنطقـة وانحسرت عن اجـزاء اخـرى منها ، بـل ان هذا التغييـر لـم تنج منه طبيعـة تكويـن قشرة الأرض نفسها ، فقد ساعـدت تلك النفايـات المتراكمـة على اخفـاء المعالـم الأولى لسطح التربـة التي اقيـم عليها القوس ، وهـذا ما نلاحظـه بالنسبة لـوضع قاعـدته التي كانت مغمورة تحت النفايات والأتربـة وذلك بمقدار نصف ارتفاعـه فوق سطح الارض الحاليـة ، ومـن المفيـد أن نذكـر هنا بأن القـوس قد استغـل فيما مضى كحانوت لبيع الخمور ومستودع لبيـع الفحـم كما تحول في الفتـرة المتقدمـة قليلا على ترميمه كدار لعـرض الصور المتحركـة وظـل مبنى القـوس مستغلا على نحـو ما الى ما بعد الاحتـلال الايطالي لليبيـا حيث امتدت اليه يـد الاصلاح لتعيـده الى سابـق عهـده ، فقد استدعت الحكومة الايطاليـة الخبراء والاختصاصيين وفي مقدمتهم السنيور (توربـا) وكلفتهم باجـراء دراسة للمشروع قبل تنفيذه ، وقد شرع بعـدئـذ في الحفـر على اجـزائه المغمـورة مبتدئين بالحفـر على اساساتـه من الجهـة الشماليـة والجهـة الشرقيـة ، وقد ذهبوا في عمليـة الحفـر تلك الى ما تحت مستوى سطح البحـر وذلك بقصد اكتشاف القاعـدة والـوقـوف بادىء ذي بـدء على الطريقـة التي انجزت بها تلك الأساسات ومن ثم ليتاكدوا بأن اساسات القـوس صحيحـة ويمكنها ان تقاوم ، وكان من الصعب انجـاز المهمـة قبل عملية الحفر التي سبقتها دراسة وافيـة للأرضية التي اقيـم عليها القـوس وقد استعمـل الفنيون الذين قامـوا بتنفيذ المشروع الكثير من مـواد البنـاء اللازمـة في عمليـة الاصلاح والترميـم كالأسمنت والجبس وقضبـان الحديـد ، وما الى ذلك من المـواد الأخـرى ومنذ ابريـل من عـام ١٩١٤ بـدا في امكان الجميـع ان يروا القـوس وقد رمم واستعاد اجـزاءه ، التي تساقطت وهكـذا فقـد اصبح حظنـا من المتعـة بمشاهـدته أوفـر من حظ اسلافنا الذين لم تتح لهم فرصة مشاهدته بالكيفية التي هو عليها الآن .

---

(٤) ر. توللي عشر سنوات في بلاط طرابلس ص ٦٣ . ترجمة عمر ابو حجلة .



٤ ـ قوس ماركوس أوليليوس بعد ان تم ترميمه واستعاد رونقه القديم

طرابلس فى قرونها العصيبة

من المفيد ان نذكر ـ بادىء ذي بدء ـ ان المرحلتين الثانية والثالثة من الحكم الروماني بشمال افريقية كانت اكثر المراحل تشبعا باعمال الشغب والقلاقل ، وقد استجدت عدة اسباب كان لها اثرها الملموس في استدراج الأوضاع العامة بشمال افريقية نحو الارتباك والفوضى الشاملة، غير ان اشد تلك المحن ايلاما قد جاءت في اثر ذلك العصيان المسلح الذي قام به الكونت بونيفاس ضد روما عام ٤٢٧ م في احدى المستعمرات الرومانية بشمال افريقية حيث كانت مسرحا داميا للثورة المسلحة ، غير ان ذلك العصيان المسلح (وهذا فضلا عن كونه ليس من الامور الجديدة على الرومان بافريقية) كان غير محتمل ان يؤدي الى نتائج ذات ابعاد خطيرة لو لم يستدع الأخير الوندال من شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا) الذين لم يفوتوا الفرصة وسارعوا لتلبية الدعوة) وربما كان استدعاؤهم الى شمال افريقية قد جاء موافقا لتطلعاتهم القديمة التي وجدت الآن فرصة سانحة لاحلالها محل عمل وتنفيذ ، فاجتاحوا المغرب على مراحل مبتدئين بالجزء الممتد منه بين جبل طارق ، وعنابة ، ثم استطاعوا بعد ذلك ان يبتلعوا المناطق الاخرى من شمال افريقية واحدة بعد اخرى الى أن تمكنوا آخر الامر من تصفية الوجود الروماني فيها تصفية كاملة .

وقد استطاع الوندال في بداية الامر ان يحولوا ذلك التوقد الثوري عند الليبيين الى مصلحتهم ووجهوه ضد الكيان الروماني المنهار ، ولا بد ان ذلك المحتل الجديد قد تلقى مساعدات كبرى من قبل الأهلين الساخطين على الحكم الروماني . وليس من المستبعد انهم كانوا له سندا ساعده على تثبيت أقدامه في شمال افريقية ، وقد استطاع الوندال ـ بفضل مساعدة هذه العناصر المحلية المشبعة بروح النقمة والحرب ـ ان يذل كبرياء

روما نفسها وان يجبرها على الخضوع والاستسلام ، ومن ثم يستبيحها الى جيوشه الغازية فتعمل فيها سلبا ونهبا وتتركها من بعد ذلك تعاني من جراحها التي استنزفت قواها ، كذلك فقد استخدم الوندال هذه العناصر ايضا — وبذكاء نادر — في أعمال القرصنة التي كان يوجهها الى سواحل أوروبا الجنوبية ويسخرها تسخيرا منظما في عمليات النهب والسلب ولمصلحته الخاصة .

وفي وسط هذه الظروف المشبعة بالاحداث الجديدة دخلت ـ مدينة طرابلس ـ في عداد المدن الرومانية الأخرى تحت حكم الوندال وبالرغم من أن الوندال لم يحتلوها الا بعد ان ثبتوا اقدامهم في بقية المدن في الولايات الرومانية الأخرى (على اعتبار انهم قد حلوا بها بعد عام ٤٥٥ م) الا ان مدينة طرابلس ظلت تلعب دورها في رسم تلك الأحداث التي توالت بعد ذلك ، بل يمكننا القول بأن طرابلس والمناطق المحيطة بها ـ كما سنتعرض لذلك بعد قليل ـ قد لعبت الدور الحاسم في صلب تلك الأحداث التي مر بها الحكم الوندالي بشمال افريقية .

لم يعثر المؤرخون الا على القليل من الآثار التي يمكن نسبتها الى العصر الوندالي بشمال افريقية عامة ومنطقة طرابلس خاصة ، وهي على قلتها وندرتها لا تشكل اية اضافة جديدة على ما كان معروفا من نشاط عمراني من قبلهم ، واذا كنا نفتقد ـ بسبب اختفاء مدينة طرابلس القديمة ـ اهم عنصر لاثبات هذه الحقيقة الا انه في الغالب — ان لم يكن من الامور المسلم بها ـ أن الوندال لم يحدثوا بها اضافات تذكر ، ومن المرجح انها قد استمرت في تواكلها على تراثها الباقي من الحضارة الرومانية ، وذلك طيلة الحكم الوندالي ، وليس من المحتمل أن الوندال قد قاموا باحداث تغيير يذكر على الاوضاع السائدة في المنطقة من قبلهم ، فقد اكتفوا بالالتفات الى الناحية العسكرية بوضع حاميات في المدن التي احتلوها ، اما فيما يتعلق بالشؤون الادارية وما اليها فقد تركت على ما هي عليه دون مساس لوضعيتها القديمة التي كانت عليها أيام الرومان ، وبما أن اهتمام الطبقة الحاكمة التي كانت تهيمن على سير الأمور في المنطقة توجه عنايتها فقط بالشؤون

العسكرية ، لذلك فليس نرى في عهدها نشاطا ذا بال في نواحي الحياة الاخرى ، وعليه فانه ليس لدينا ما يدل على ان الوندال قد باشروا اي نشاط فيما يتعلق بنواحي التعمير والاصلاح في منطقة طرابلس وذلك على نحو ما فعل اسلافهم الفينيقيون والرومانيون او انهم اقدموا على خوض مشروعات كبيرة تستهدف تنشيط الزراعة او التجارة ونواحي النشاط الانساني بصورة عامة وانه بالمقابل - يمكن للمرء ان يستنتج من ذلك ان الكثير من تلك الانشطة التي كانت تمد الحياة بمقومات البقاء قد اصبحت في هذا العهد تعاني من ضعفها ، وتقاوم هزالها ولعلها لم تصمد فلفظت انفاسها الأخيرة .

وفي وسط هذه الظروف التي تبدو غير مواتية لاحتبال فرص الانتعاش لأكثر من جانب من جوانب الحياة لا يمكن ان نتصور قيام مدينة طرابلس بمشاركة ايجابية داخل المجموعة الأمبورية على نحو ما تحدثنا عنها فيما سبق ولا بد (انه قد خيم الكساد على المدينة بأكملها ، وان الكثير من نشاطات الحياة قد دفع بها الى هاوية السكون ، والكساد العام . واذا ما حاولنا أن نمعن النظر في النواحي العمرانية فاننا سنواجه النتيجة نفسها) فمما يستلفت النظر ان الدليل الوحيد لاحتلال الوندال لمدينة لبدة (لبتس مانيا) هو مجموعة من قطع نقود اكتشفت في السوق او باستثناء اقامة حامية صغيرة - لا يبدو أنهم قاموا بمجهود لتنظيم تحصينات في البلاد - بل على العكس من ذلك تماما فقد امر جنسريك (٤٣٠ - ٤٧٧ م) بهدم اسوار (لبتس مانيا) وصبراتة ، وفي الغالب (اويا) طرابلس ولم يبق على اية استحكامات تتيح فرصة في صالح العدو (١) .

وبما أن الاستقرار واستتباب الامن عاملان مهمان في ازدهار الحياة العمرانية وان مثل هذين العاملين غير متوافرين بالنسبة للعهد الوندالي ، وبالخصوص في الأزمنة المتاخرة منه ، ذلك أن القراصنة الذين كان يعتمد عليها الملك (جنسريك) واغلبهم من الليبيين « البربر » ، ان ذلكم القراصنة

(١) د. أ. هاينز : طرابلس الغرب - الطبعة الانجليزية .

(بعد ان نضب معين تلك الخيرات التي كانت تاتيهم عن طريق الأسلاب والغنائم) قد بدأوا يمارسون الشيء نفسه في داخل البلاد ، فكانت جموعهم تنقض على المدن الساحلية فتحدث فيها الخراب ، وتزرع فيها الخوف والرعب ، وقد اشتد ساعد بعض القبائل في انحاء كثيرة من بلاد المغرب عامة وطرابلس خاصة الى الحد الذي افلحت فيه بانتزاع استقلالها واستعادة حريتها . غير ان اهم تلك القلاقل التي حدثت وكان لها دور كبير في زعزعة الوجود الوندالي في افريقية قد صدرت من المناطق المحيطة بطرابلس حيث تلقوا فيها اشد الضربات وحيث استعمل فيها الطرابلسيون (قبائل لواتة) الجمال لاول مرة في المعارك التي دارت رحاها بينهم وبين خصومهم ـ الوندال .

وهذا يعني بشكل عام ان الوندال لم يتمكنوا ـ حتى وان وجدت النية الصادقة لديهم لتوفير حياة عمرانية مزدهرة ـ من أن يقوموا باية اضافات على ما كانوا قد وجدوه من قبلهم ، ويبدو انهم كذلك لم يستطيعوا ان يقدموا الحماية الكافية للابقاء على مخلفات الحضارة الرومانية من الهجمات التخريبية التي يقوم بها البدو الذين يتخذون من سكنى الجبال والمناطق الداخلية من البلاد كمحارس منها ينطلقون ليمارسوا هجماتهم على المناطق الساحلية حيث المدن الغنية ، ولا بد أن مثل هذه الغزوات المتكررة على المناطق الساحلية والمدن الماهولة بالسكان قد جعلت المقيمين بها يفكرون في الهجرة منها الى مناطق اكثر حماية واوفر امنا ، ولابد ان مدن (الامبوريا) وفي مقدمتها مدينة طرابلس قد تعرضت ـ كسائر المدن في ذلك الوقت ـ الى هجمات البدو الأشداء والذي يزيد من اعتقادنا هذا ان المناطق المحيطة بالمدينة خصوصا من الناحية الجنوبية والناحية الغربية ـ كانت مسرحا لأعمال الثورة والحرب حيث كانت قبائل (لواتة) و (الفراشيش) اهم العناصر المنشطة للقلاقل والتوتر بالمنطقة الممتدة من قابس حتى مدينة طرابلس ، وبدون شك فان وقوع هذه البقاع فريسة لأعمال العنف قد ترك اثره في الحياة العامة وبالأخص الحياة العمرانية . وبناء على ما تقدم فليس من المعتقد ان يكون الوندال قد حققوا من الأمن ما اضاف الى مدن الامبوريا اية اعمال عمرانية جديدة .

ففي عهـد الملك (جلمـار) آخـر ملوك الوندال (٥٣٠ ـ ٥٣٤ م) تضاعفت أعمـال الحـرب بين القبائـل القاطنـة بين طـرابلس وتـونس وبين الحاميات الونـدالية المعسكرة في هذه المنطقة وبـدات هـذه الحـرب تستنـزف قـوى الحكومة الوندالية وتقض مضجعها حتى اذا ما فاجـاها (بليشار) القـائـد البيزنطي بجيـوشه ، وجـدها مشغولة بمنازعاتها مع السكان المحليين ، ولـم يكن وقتئذ من الصعب عليه أن يجتاح المنطقـة ، وان يستولى على مقاليـد الأمـور فيها ، واذا عـرفنا ان المـدن في ذلك الـوقت قـد جـردت من اسوارها بفعـل تلك السياسة العسكـريـة الحمقـاء التي مـارسهـا ملـك الـونـدال (جنسريك) كان بامكاننا ان نتصور كيف زاد هـذا من تعزيز المـوقف عنـد الجيـوش البيزنطيـة المباغتـة ، وعلى اثـر تلك المعركـة التي دارت رحـاها بين الطـرفين بالقرب من تـونس استسلمت الحاميات الونـدالية حيث استطاع البيزنطيون ان يستولوا علـى (قرطاج) وقد جـاءت حملة صغيـرة الى طـرابلس بقيـادة (هراقليوس) استولت بسهولة على المـدن غيـر المحصنـة وطـردت حاميـة الونـدال بعـد ان احتلت طرابلس لمدة ثلاثة اعـوام دون مقاومـة انسحبت تلك القـوات بمحض ارادتهـا (٢) .

وفي الصفحـات التالية من هـذا الكتاب سنتعرض للحـديث عن قـرن آخـر من حكـم البيزنطيين محـاولين ان نتتبع خـطواتهم في حكم طرابلس ومـا تركـوه من اثـر في الحيـاة العامـة كل هذا في نطاق ما يمكن ان نستنتجـه وما يمكن ان نتصوره او يكون قريبا من حدود ذلك الاستنتـاج والتصور .

(١) د. ا. هاينز (طرابلس الغرب) ـ الطبعة الانجليزية .

مدينة طرابلس تلتقط أنفاسها

بينما كان الوندال مشغولين باخماد الثورات الداخلية التي قامت بها قبيلتا لواتة ، والفراشيش في المناطق الجنوبية القريبة من تونس ، وطرابلس فقد بدأ ان هذا الوقت بالذات مناسب للبيزنطيين الذين اغتنموا الفرصة ، وارسلوا قوة صغيرة بقيادة (هراقليوس) استطاعت أن تنجز مهمتها بسهولة حيث اجلت الحامية الوندالية المرابطة بمدينة طرابلس ، وبذلك تم الحاق المدينة بالحكم البيزنطي في عام ٥٣٤ ميلادية ، ولقد ساعد البيزنطيين على احراز هذا النصر السريع (فساد سمعة ـ جلمار ـ ملك الوندال ، وسخط الشعب عليه ، وانشغال اسطول الوندال ـ ١٢٠ سفينة حربية ـ بقمع ثورة بسردينية) (١) . هذا فضلا عن انقسام الوندال ، وعدم تكاتفهم .

غير ان الحرب ـ كما يبدو ـ قد تواصلت بين الطرفين في مناطق اخرى من شمال افريقية ، واذا كانت بعض القبائل وفي مقدمتها قبيلتي لواتة ، والفراشيش لم تتدخل في الحرب الدائرة الى جانب اي من الأطراف المتحاربة ، الا ان الأمر كان بمثابة هدنة مؤقتة ، اذ سرعان ما عادت تلك القبائل الى ممارسة ثورتها القديمة ، وكانت اهم المناطق التي اندلعت فيها اعمال الثورة تقع في اجزاء من تونس وطرابلس والجزائر لهذا لم يكن البيزنطيون يتمتعون بوضع مريح يتيح لهم اكثر ما اتاحه (نفس الوضع تقريبا) للوندال من قبلهم ومع ذلك فقد واجه البيزنطيون متطلبات الحياة العامة بشيء من الحزم ، اذ نراهم قد حاولوا ـ بمجرد وضع ايديهم على افريقية ـ أن يقوموا بالعديد من الاصلاحات في الناحية الادارية والدينية والعمرانية ، ولا بد ان مثل هذه الاصلاحات قد اخذت

---

(١) احمد صفر مدنية المغرب ص ٣٩٤ الجزء الاول .

من الجهـد والـوقت والمـال الشيء الكثير ، وكان من الـواضح ان تلك الفوضى التي استشرت طوال قرن من حكم الوندال قد استنفـدت واصبحت قديمة ، وبات من المؤكد ان هناك الكثير من الأمـور تلح على الاصـلاح ، لذلك فقد عمـل البيزنطيون على توفيـر نظـام اداري جديـد ، فقسموا افـريقية الـى سبع مناطـق اداريـة بـدلا من اربـع مناطق حسب النظـام الاداري الروماني القديم ، وقد اعادوا لمدينة (لبتس مانيا) اعتبارها لتكون هي العاصمة بدلا من طـرابلس ، وقـد يكون لمثـل هذا الاجـراء ما يبـرره بالنسبة لتلك الفتـرة من الحكـــم .

وقد يكون لهذه الخطـوة اثـرها على مدينة طرابلس بعـد ان سلبت منهـا اختصاصاتها القديمة التي اعطيت لها منذ عصـر (سبتيموس سيفاروس) ولا بـد انها كانت تعامـل على هـذا الاساس طيلـة الحكم البيزنطي ، غيـر أن للمـرء مع ذلك أن يتصور أن هناك اصلاحات لا بـد انها ادخلت على مدينة طـرابلس أسوة بما وقـع ـ فعـلا ـ من اصلاحات في بقيـة المـدن الأخـرى في مقاطعـة طـرابلس ، وقد ساعـدت السيـاسة العمرانيـة التـي سلكهـا الامبراطـور (جوستانيان) العظيـم ـ ٥٦٥ ـ ٥٢٧ م في انشـاط الحيـاة العمرانيـة في إنحـاء كثيـرة من امبراطوريته المترامية الأطراف ، ومن المؤكد أن (البـلاد الليبية قد فـازت بعنايـة خـاصة لمـا حـل بها من دمـار نتيجة الحـروب الونـدالية ، والثورات التي استمرت حتى سنة ٥٤٨ م) (٢) فقـد ورد في كتـاب المبـاني (لبروكبيوس) (٣) ما يشيـر الى قيـام البيزنطيين بالعديـد من الاصلاحـات العمرانيـة ، كما اقيمت المباني واعيـد بناء الأسوار وشيدت الكنائس ، وزودت المدائن بالحمامات ، واذا كان كتاب المباني لم يات بالذكـر على شيء من ذلك فيما يختص بمدينة طرابلس (اذ اكتفى مؤلفه بذكر الاصلاحات الخاصة بمدينتي (لبتس مانياوصبراتة) الا انـه لا بد ان قـدرا من الاصلاحـات قد أدخلت على المـدينة خصوصا فيمـا يتصـل بالأسـوار

---

(٢) د. عبد القادر احمد اليوسف ، امبراطورية بيزنطة ص ٥٧ .

(٣) المؤرخ الروماني بروكبيوس رافق الحملة البيزنطية التي جاءت لانتكاك افريقية مـن يـد الوندال وكان شاهد عيان لاكثر ما جاء في كتابه (المباني) .

والتحصينات العسكرية ، اذ ليس من المعتقد ان تترك المدينة مجردة من اسوارها دون ان يؤخذ في الاعتبار وضعها المعرض الى اي هجوم خارجي لذلك فمن المؤكد انهم اعادوا بناء السور (ولقد وجدها العرب عند ما دخلوها فاتحين مسورة ولم يكن اقتحام المدينة قد تم لهم بسهولة) وربما كان للبيزنطيين نشاط معماري بمدينة طرابلس اسوة بما كان لهم من نشاط في مدنتي صبراتة (لبتس مانيا) ، ويعني هذا ان يتوقع المرء اصلاحات مماثلة بالمدينة ، وان كنا لا نعلم عنها شيئا باليقين والتحديد .

ومهما يكن من امر فان الفترة التي حكم فيها البيزنطيون طرابلس قد تميزت بانها قد اعطت (دفقة اخرى من الحياة) بعد قرن من الانهاك والتردى والفوضى وربما كان بوسع البيزنطيين ان يقوموا بالكثير مما يساعد على ازدهار الحياة لولا ان (الوضع في افريقية لم يستقر لثورة السكان الوطنيين) (٤) المتواصلة ، وان مثل هذه الثورات الأهلية كان لها رد فعل عنيف في مجرى الحياة العامة ، واذا كنا لا نعلم على وجه الدقة كيف انتهت اليه الأوضاع بمدينة طرابلس ، ولكن ليس من المحتمل ان يكون الوضع فيها باسوا مما كان في العصر الوندالي ، فنحن نعلم ان البيزنطيين قد ركزوا اهتمامهم بالمناطق الساحلية حيث المدن ، ولم يكن قد ابدوا اي نوع من الاهتمام بالمناطق الداخلية حيث كان الأهالي يرتدون بسرعة الى ما كانوا عليه قبلا من حياة البداوة والرعى (٥) كذلك فان اوضاع البلاد بصورة عامة كانت تبعث على الأسف ، وقد سجل لنا المؤرخ (بروكوبيوس) المتقدم ذكره انطباعه عن احوال البلاد الليبية قائلا : « هذه ليبيا فقد انزل فيها الدمار والخراب اذ يسير الانسان فيها مسيرة طويلة ، ومن النادر ان يعثر على فرد واحد بعد ان كانت تضم ثمانين الفا من الوندال المسلحين ، وجموع الليبيين التي لا تحصى المشتغلة بالزراعة والتجارة » (٦) وان كان هذا الوصف ليس خاصا

---

(٤) د. عبد القادر اليوسف ، امبراطورية بيزنطة ص ٨٤ .

(٥) ا. هينز . طرابلس الغرب ، الطبعة الانجليزية .

(٦) د. عبد القادر احمد اليوسف ، امبراطورية بيزنطة ، ص ٥٧ .

بطرابلس وحـدها وانما كان يعنى افريقيـة بالمعنى الجغـرافي القديـم الا انه يمكننا مع ذلك ان نجـد في هذا الـوصف ما يتطابق مع الأوضاع في طرابلس ، بـل ربما كان الـوضع فيها اسوا خصوصا اذا علمنا ان طرابلس كـانت اشـد المناطـق في افريقية التهابـا بالثورات ، ويعمـد المؤرخ سالف الذكر الى تحليل الاسباب التي ادت الى تدهور الامور في البلاد الليبيـة ، وينتهـي من ذلك الى ان البيزنطيين لم يسلكوا « سبيـل العـدل في ادارة شمال افريقية ، وكان جـوستنيان عند قهـره الونـدال لم يتخـذ الاجراءات التي تكفل المحافظة على املاكـه عن طريق مرضاة النـاس ، بـل عمـد الى فـرض ضرائب ثقيلة لـم يكن لها نظيـر من قبـل ، وادعى ملكيـة كافة الأراضي الصالحـة للزراعـة ، ومنع الأوريسيين من اقامـة شعائـرهم الـدينية ، وعجـز عن تسديد نفقـات الجنـد لهـذا كانت الثورة الليبيـة التي اسفرت عن مـآس كبرى » (٧) .

ويبدو ان مثـل هذه العوامـل المتداخلـة قد كانت مـن الأسبـاب الباعثـة على الهيـاج بالمنطقـة ، فقـد عـادت،قبائـل (لـواتـة) و (الفـراشيش) لمـارسة ضغوطها المسلحـة ، ولم تكن لتكف عن اعمـال الثورة والحـرب الا لكي تبـدأ من جديد ، والذي زاد الأمـر سوءا بالنسبة للبيـزنطيين ان ذلـك (التنافس بين القـادة الرومـان ادى الى حـروب بينهم من جهة وضد السكان من جهـة اخـرى مما سبب ابـادة اكثر الليبيين) (٨) ولـم تكـن بسبـب الأوضاع المتقلبـة لتستقر الأمـور في البلاد الليبية ابان الحكم البيزنطي الا في القليل وفي هذا الوقت كان العـرب يواصلون (اندفاعهـم من مصـر ضد بقيـة المـراكـز البيزنطيـة في الشمـال الأفريقي) (٩) حيث تمكنـوا فـي عـام ٦٢٢ م (١٠) من احتـلال مدينة طرابلس كما سنتحدث عن ذلك في الفصل التـالي من هـذا الكتـاب .

---

(٧) د. عبد القادر احمد اليوسف ، امبراطورية بيزنطة ص ٥٧ .

(٨) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٩) نفس المصدر ص ٩٧ .

(١٠) هناك من بين المؤرخين من يؤرخ لفتح طرابلس بـ ٦٢٣ م .



٥ ـ منظر لمدينة طـرابلس ـ يظهر بوضوح السور والمينـاء
والاستحكامـات الحربية وبعض المعالم الدينيـة

طرابلس فى ظـل العهـد الاسلامى

عندما ظهـر العـرب كقـوة جديـدة على مسرح الحياة في الجزيرة العربية في ذلك الـوقت كانت (افريقيـة تحت الحكـم الرومـاني البيزنطي تعـاني الاهمـال من الحكام البيزنطيين ، لأن بعضها تابـع لبطريـق الاسكندريـة وبعضها الآخـر تابـع لبطريق ـ اسبيطلـة ـ او ـ قرطـاج ـ وكـل واحـد من هذين مشغول بما يليه من اضطرابات مـذهبية وطائفية وسرعان ما فقدت الوحـدة بين تلك الأجـزاء ، كما فقـدت بين بيزنطة وولاياتها الأفريقية عامة واصبح المظهر العام للحكم العسكري البيزنطي لا يتمثل الا في جمع الضرائب ولم تعد المحارس على السـاحل الا امتدادا صـوريا للسلطة القديمة (١) وبمجرد أن رسخ العـرب الفاتحيـن اقدامهم في تلك المناطق المجـاورة للجزيـرة العـربية حتى أخـذوا يرنـون بابصارهم صوب شمال افريقيـة ، يريـدون أن يمـدوا فيـه فتوحاتهم من ناحيـة الغـرب كما فعلوا من قبل في عـدة اتجاهـات أخرى للبـلاد المتاخمة لجزيرتهم ، وبالنظـر الى الأحـوال السياسيـة المضطربـة في شمـال افريقيـة فان العـرب قد وجـدوا في هـذا فـرصة لخـوض غمـار حـرب يكون فيها النصر الى جـانبهم ، وفعـلا فقـد استطاعـوا في بدايـة زحفهم على مصر وما كان يسمى ببرقـة وطـرابلس ان يحققوا انتصارات سريعـة على المقاومة البيزنطيـة ، وأن يكتسحـوا اكبـر معاقلهم : الاسكندرية ، ثم لبتس مانيا وطرابلس ، الا ان تلك الانتصارات قد تعثـرت بعـد ذلك ، وبـدات تسيـر ببطء شديـد بعـد أن بـدات تصطـدم بتلك المقاومـة المنيـدة التي واجههـا العـرب من قبل القبائـل الكبيرة فـي المنطقـة .. فعلى الرغـم من أن العـرب قـد أخـذوا بسيـاسة الليـن والعـدل والمساواة مـع هذه القبائـل ، الا ان ذلك لم يفـد شيئا في تخفيف حـدة تلك

---

(١) د. احسان عباس ، تاريخ ليبيا ، ص ١٤ .

المقاومة العنيدة التي وجدوها في خلال اندفاعهم شطر المغرب مما اضطرهم ان يباشروا حربا طويلة ، اخذت من عمر الزمن سبعين سنة قبل أن يتم لهم الظفر بنوع من الاستقرار . وكان على العرب أن يذوقوا طعم الهزيمة المرة عدة مرات (فقد ابيد عقبة وجيشه حتى آخر رجل في بسكرة ـ ٦٨٣ هـ ـ وقد اخلى زهير افريقية سنة ٦٩٠ هـ بعد احرازه انتصارا مؤقتا ، وتراجع نحو مصر وقتل في برقة وهو في طريقه اليها ، وهزم حسان سنة ٦٩٨ هـ بعد ان قدم على راس جيش جرار جاء ليثار لأسلافه كان ذلك في (مسكيانة) على سفح الأوراس ، وكانت الهزيمة مرة الى درجة اضطر فيها العرب للتراجع الى برقة بغية تنظيم صفوفهم) (٢) .

وعند ما راى العرب ان اعباءهم العسكرية قد زادت في شمال افريقية بازدياد اتساع رقعة نفوذهم فيها ، فضلا عن انهم وجدوا ان تلك الحملات التأديبية التي يرسلون بها من الشرق لا يمكنها ـ في الواقع ـ الا أن تحقق نجاحا مؤقتا في تهدئة القلاقل (فقد كان البربر وبقايا الرومان بأفريقية اذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا واذا رجعت عنهم ارتدوا عن اسلامهم) لذلك اخذوا يفكرون جديا في تأسيس قاعدة ثابتة ليكون بامكانهم أن يراقبوا منها ـ عن كثب ـ الأحداث الجارية في المنطقة ، وهكذا نراهم قد قاموا بتأسيس مدينة (القيروان) في منطقة تتوسط شمال افريقية أو تكاد (!)

وقد جيء اليها بولاة ارسلو من الشرق ليتولوا ادارة افريقية بالنيابة عن الخليفة سواء كان في دمشق او بغداد ولكن بعضا من هؤلاء الولاة قد افلحوا في تأسيس حكم مستقل عن المشرق او كان لهم شبه استقلال عنه ، غير ان تلك الحكومات المتعاقبة . التي تأسست بالقيروان ، أو تلك التي وجدت بعد ذلك في اماكن اخرى من بلاد المغرب كانت دوما تشكو من عدم الاستقرار الذي يأتي عادة بالتعمير والاصلاح ، فقلما كان يتاح لتلك الحكومات أن تعمر لأكثر مما يتاح لشخص من المعمرين ان يعيش ! !

هذه المقدمة لا بد منها لفهم الظروف السياسية العامة التي كانت

---

(٢) ا. ف . غوتيه (ماضي شمال افريقية) ص ١٧٢ منشورات مكتبة الفرجاني طرابلس .

تكتنف بـلاد شمـال افريقية في ظـل الحكم العـربي ذلك انه اذا أراد المؤرخ ان يرصد حركـة التاريـخ في ليبيـا في هـذه الفتـرة ، فلا يمكـن لـه ان ينظـر اليها بمعـزل عن الأحـداث التي كانت جاريـة في منطقة شمال افريقية بأسـرهـا .

فقد كانت حركـات التاريخ هنا حركات متصلة يكمل بعضهـا بعضا بحيث نجـد في معظـم الأحيـان ان ما يقـع في جـزء من اجـزاء افريقية الشماليـة يكون لـه صدى في اجـزائها الأخـرى ومن هنا فنحن نجـد الا سبيـل فـي تقييـم الأحـداث التي وقعت بالمنطقـة ـ تاريخية كانت او اجتماعية او ثقافية او عمرانيـة ـ الا بـدراستها مجتمعـة قبـل تصنيفها والخـروج بحكم فيها ! !

ومهما يكـن من أمر فاننا اذا نظـرنا الى (ليبيـا) على انفراد .. فاننا نجدهـا قـد واجهت ـ بعد ان دخلت في ظل الاسلام ـ منـحنى جـديـدا من منحنيـات تطورها السكاني والعمراني والثقافي والديني واللغوي ! !

وبمـا انـه لا يعنينا هنا سوى أن نقف عند تطورها العمـراني ، فانه مـن الـواضح ان نجـد في تاريخ ليبيـا بعض المراحـل التي تتحـول فيهـا تلك الطاقـات التي كانت فيما مضى موجهـة لأعمـال الثـورة والعنف الى حوافـز يدفـع بها الى ساحـة العمـل المثمـر ، سنرى في بعض مـن اجـزاء هـذا الكتـاب كيف استطـاع بنـو الأغلب ـ في عهدهم الطـويـل نسبيـا ـ ان يضعوا لمساتهـم العمرانيـة على وجـه الحياة العامة في ليبيـا ، ولا بـد ان تلك اللمسات كانت من الشدة والقـوة بحيث استطاعت ان تعمق مجـرى ذلك التحـول العمرانـي (طريقـة وذوقـا وغايـة) والذي لا شك فيه انـه قد اخذ يتغير تدريجيا منذ ان وفد العرب الفاتحين اليها ! .

ففضلا عن اهتمـام الأغالبـة بتنشيط اعمـال الزراعـة والصناعة والتجارة فقـد وقـع في عهـدهم اهتمـام خـاص بالناحية العمرانية وكان اهم مظاهرها قـد انصب في الناحيـة الدفاعيـة (الرباطات . والأسوار ، والحصون) ولا بـد ان تكون مدينـة طـرابلس قـد نالت من الحظوة الشيء الكثيـر ، ويكفـي ان نـراهم يعنون بتجديـد بنـاء سورها ويستكملونه من جهـة البحـر ، كمـا

سنورد ذلك بالتفصيل في مكانه المناسب من هذا الكتاب . وقد عرفت مدينة طرابلس في عهدهم انجازات اخرى فيما يتعلق بالمعمار الديني ، حيث ظلت هذه الانجازات محل فخر لعدة اجيال من بعدهم ، وسنشير الى منجزاتهم في هذا المجال عند ما يتاح لنا التحدث عن المؤسسات الدينية في طرابلس وما ساهم به الأغالبة في تعمير افريقية على وجه العموم يعتبر شيئا عظيما لا نبالغ اذ نقول بأن ما حققوه من منجزات يفوق من الوجهة الفعلية ما انجز في اكثر المراحل التالية على انقضاء حكمهم ! !

وفي الوقت الذي يواجه فيه المؤرخ صعوبة جمة في الوقوف على حقيقة التطور العمراني الذي واكب المراحل التاريخية التالية على حكم بني الاغلب ! (لان المصادر العربية القديمة لا تكاد تضع بين ايدينا سوى القليل من المعلومات عن هذه الفترة) فان المصادر التي استجدت اخيرا ظلت هي الأخرى تعاني من نفس المشكلة ، وليس هناك في الواقع من بد من اللجوء الى تقييم الاوضاع العمرانية على ضوء الاستنتاجات المبنية على طبيعة المرحلة ومعطياتها التاريخية .

ويعني هذا ان نعود الى البواعث الاولى لحركة التاريخ ، وان نبني على اساسها تلك النتائج التي تقدمها لنا . وهذا يجعلنا نتساءل ما السبب في أن تنشط الحياة العمرانية في ظل حكومة من الحكومات ، ويخف نفسها وتنكمش في ظل حكومات اخرى ؟ !

من الجلي الواضح ان هناك عناصر اولية لا بد من توافرها قبل ان تكون الفرصة مواتية لقدح زناد النشاط العمراني . ويبدو لنا ان أهم عنصر في جملة هذه العناصر هو مقدار ما تتمتع به حكومة من الحكومات أو عهد من العهود من اسباب الاستقرار . ذلك ان غياب هذا العنصر يخلق بدون شك — عقبات مضادة للبواعث الحضارية ويجعلها غير قادرة على الحركة ! !

واذا احتكمنا الى تلك الظروف السياسية التي سادت ليبيا فاننا نجد انها كانت في بعض العهود غير مساعدة على نمو البواعث العمرانية فيها .. فان

الفتــرات التي كانت تتوافــر فيها ظروف الاستقرار كانت أقصر اذا قسناها بتلك الفتــرات الاخرى التي كانت تصطخــب بالفوضى وتضطــرب بالهياج والثــورة .

فلـم يكـد المغـرب كله ــ بما في ذلك ليبيــا ــ ينسى حــوادث التخـريب الدامية التي قامت بها الكاهنة الداهية (التي ارسلت بعمالها ليهدموا القرى والمدن ويقطعــوا الشجـر ويحرقــوا الغــابــات) خــلال ثــورتها التي قــامت بها ضد تقدم الفتوحات العربية بشمال افريقية ــ وكانت النتيجــة ان اصيبت المنطقة بظهور مخربين جدد ظهروا على مسرح الاحداث وذلك في اواسط القــرن الخــامس للهجــرة .

فقــد جــاءت قبائــل بني هــلال وسليم الى المغـرب وفي يــدها امــرا مــن العلــويين بمصر بأن يمــارسوا عملهم التخريبي انتقامــا لخروج المعـز بـن باديس خليفة الفاطميين بافريقية ، عن مذهب الشيعة ، وميله الى مذهب اهــل السنة ، وقــد اجتــازت تلك القبائــل وادي النيل ميممة وجهها شطـر المغــرب ، وكانت (ليبيــا) هي البلاد التي شاء سوء حظها ان تتلقى الضربــة الأولى ، وذلك قبــل ان يكون بامكان تلك القبائــل ادراك المغرب الأوسط وان يلحقــوا بــه الخــراب والدمــار !

ومن المؤكــد ان وجود تلك القبائــل بأعــداد ضخمة واستباحتها لكــل مــا يقع تحت يدها لاعمال التخريب والتدمير والاحراق ، قد اثر تــأثيرا واضحــا على مظهــر الحيــاة العامــة في المنطقــة وتركت كل شيء فيها علــى شفيــر المــوت ! !

على ان اعمــال التخريب التي قامت بها هــذه القبائل لم تكن في الــواقــع الا بدايــة النهايــة في المــأساة الكبرى التي ترتبت على استيطانهم في أجزاء كثيرة في المغــرب اذ كان هذا يعنى على الــدوام تدميــرا للكيان السيــاســي بعــد ان ظلت هــذه القبائــل عامــلا منشطــا للانقسامــات الــداخلية المفعمــة بالثــورة والغضب وهي بعــد ذلك كثيرا ما نراهــا ــ اي هذه القبائــل ــ قــد استغلت استغلالا سيئــا لحساب هذه الانقسامــات فقد كان لا يهمها لحســاب

من تحارب ما دامت تستطيع ان تجد في الحرب في حـد ذاتهـا ما يأتـي اليها آخر الامر بما يملأ البطون ويكسي العرى !

ومن هنا فاننا نجـد ان افريقيـة بعـد ان انهكتها اعمـال التخـريـب باتت تشهـد مجيء الغـزاة والمغامـرين من كل صنف .. والأخطـر من ذلك ـ كمـا يقول المـؤرخ الفرنسي ا. ف غـوتيـه ـ ان بعض الـدول بـدات تغـامـر عسكريا على الشواطىء المغربيـة فسقطت طرابلس في يـد روجـير الصقلي سنـة ١١٤٥ م ثـم سقطت في يـد الجنوبيين عـام ١٣٥٤ م .

على اننـا لا يجب ان نتصور بان كل العهـود التي واكبت تاريخ المنطقـة كانت عهـود ثورة وهياج وعنف متصل ومتواصل ، فقد كانت هناك عهود اخرى كثيرة تأتي وفي أذيالهـا دول قويـة يتاح لهـا توطيـد اركان الامـن فـي المنطقة ، وبالتالي فقد تمكنت من تحقيق ظـروف معقولـة للاستقرار ومن ثـم العمـل والبنـاء !

غيـر ان كتب التاريخ ـ للأسف الشديـد ـ لا تحـدثنا الا عـن القليـل جدا من تلك المنجـزات التي تمت فعـلا مـع ظهور تلك الـدول واختفائها ولكن لا بـد ان تكون على نحـو ما يتناسب مـع حجـم وامكانات تلك الـدول ، وبمـا اننـا نـرى ان اهـم منجـزات العهـود الاسلاميـة تنحصر فيما تركوه في مـدينة طـرابلس مـن مـؤسسات دينية وثقافية وحربية فقد راينا ـ بعـد أن مهـدنا بهذه المقدمـة عن الظـروف العامـة للوجـود العـربي في المنطقـة ـ أن نفـرد فصولا خـاصة نتلمس فيها معـا ذلك الـدور الذي قـام به العـرب منـذ مجيئهـم الى ليبيـا على مسـرح الحيـاة العمرانيـة وبالذات ما يتصل منه بالنواحـي التـي ذكرنـاهـا سابقـا .

مساجد طرابلس

تتميز الحياة العمرانية في الحضارة الاسلامية بمسحة دينية نجدها تبدو على اشد ما يكون في المساجد التي نشأت على رافد هذا الدين الحنيف فلقد كان المسجد ضرورة من ضرورات العبادة . والتقاء المسلمين وقد جابه النبي (محمد) صلى الله عليه وسلم مثل هذه الضرورة عند ما نجده قد وضع هو واتباعه خطة لبناء مسجده بالمدينة المنورة ليكون خاصا باجتماع المسلمين في أوقات الصلاة الخمس ومكانا لالتقائهم في المناسبات الهامة لتدارس مشاكل المسلمين في ذلك الوقت المبكر من فجر الاسلام ولو لم يكن ذلك المسجد في الواقع الا (مجرد سقيفة اقيمت على طرف من أطراف الصحن وهي مبنية من الاغصان والطين ومرتكزة على جذوع النخيل) (١) الا أن هذا البيت المتواضع اصبح نموذجا لهندسة أولية اخذ المسلمون يحذون حذوه في بناء مساجدهم وان يبدو انهم قد أخذوا يتفننون في بنائها عند ما اتيح لهم أن يحتكوا بالحضارات الاخرى ويقتبسوا منها وينقلوا من خصائصها الشيء الكثير ؟ ! .

فقد اقتضى امر ذلك الاحتكاك ان يتطور فن المعمار الاسلامي وان يتجدد مع تجدد تلك القرون التي توالت على الحضارة العربية الاسلامية ، وقد تم هذا التلاقح بفضل ذلك الاستعداد المتوافر لدى المسلمين الذين قدروا المواهب التي نشأت في ظل الحضارات الاخرى وادخلوها ضمن اطار حضارتهم وذلك بعد ان اجروا عليها شيئا من التعديل لتناسب روح العقيدة الاسلامية وليس من شك في أن فن المعمار الديني قد استفاد كثيرا عندما استعان المسلمون بالايدي العاملة التي تربت وترعرعت في ورش القسطنطينية وروما واثينا وكان نتيجة هذا التعاون

---

(١) جورج مارسيه ، الفن الاسلامي ، ص ١٣ .

ان اكتسب فـن العمـارة العـربي ميزات كثيرة ظلت الوجـه المعبر للحضارة الاسلاميـة الخـلاقـة .

وبعـد ان توطدت أقـدام المسلمين في ليبيـا ، واستقروا بها على نحو مـا تقدم بداوا مرحلتهم الطويلة في تعـريب البـلاد واخضاعهـا شيئا فشيئا الى التقاليـد الاسلاميـة ولا بـد أنهم قـد بذلوا جهودا ضخمة لتغييـر وجـه الحيـاة واستبدال الكثيـر من الامـور التي لا يوافق عليها الاسلام ومن ثـم فقـد اقتضى الامـر استبدال الكنيسة بالمسجـد كخطوة مـن خطوات التغييـر في العقيـدة ، وكأثـر من آثـار انتشار الاسلام في المنطقة ، ولذلك فقـد كان المسجـد من اهـم المعالـم الاسلامية التي استقرت اسسها الاولى في البـلاد ، ومع ذلك فان التاريخ لم يبق لنا ايـة معلومات ذات قيمـة عن تلك الظروف التي رافقت بدايـة النشأة الاولى للمؤسسات الـدينيـة ، وكـل ما يحـدثنـا عنه المؤرخـون بعض اسماء لمساجـد كثيرة وجـدت يوما ما بطرابلس والقليـل من ذلكم المؤرخين من كان يكلف نفسه عناء التحري عن المكـان الـذي بنيت عليه او يقـدم لنا معلومـات بـالمواصفات المعماريـة عنهـا ، لان تـاريـخ المساجـد حافـل بشتى التطورات ، ولم يكن التاريخ قد رصـد لنا الا القليـل من صور ذلك المـد والجـزر الذي وقـع لتلك المساجـد في خلال ما يزيـد على ثلاثـة عشر قرنـا من الزمـان فانه لم يبق امامنـا من شيء سوى ان نلتمس مـن خـلال المعلومـات المتوفرة بعض مـا يعنينـا على ان نتصور الـظـروف الاولى التي انشأ المسلمون في ظلهـا مسجـدهم الاول بمدينة طـرابلس ، فلا بد ان المسلميـن قد شعـروا بالحاجـة الى وجود مكان دائـم يجتمعون فيه عنـد اقامـة الصلاة في اوقاتها الخمس ولنقـل بأن هذه الحاجـة قد ارتبطت ايضا برغبتهم في ان يكون لهم ذلك المكان بمثابة (برلمـان) لاجتماعاتهم اليـومية التي يتدارسون فيها احـوال الرعيـة ، والى جانب هـذا يمكننـا ان نتصور بأن المساجـد التي تأسست في اثـر الفتح العـربي لم تكـن علـى اقصى الاحتمـالات ـ قد تشكلت على نحـو ما عـرفت بـه الآن ، فقـد كانت الغايـة من وجودها هو اتمام شرط الجماعة التي تقتضيها الصلوات الخمس ، ولذلـك فليس من المحتمل ان تكون قد روعي فيها اي اهتمام بالناحية الفنية ، وهكـذا كان مسجد عمرو بن العاص بطرابلس صورة بدائية متواضعة للمساجد الـتي

تواجدت في العهود الاولى للاسلام بليبيا ، غير ان الظروف العامة قد بدأت تسمح للمسلمين في أن يحققوا شيئا من الاهتمام والعناية بمؤسساتهم الدينية بعد ان صار بامكانهم ان يوفروا الاستقرار وان يرصدوا المزيد من المال من اجل ان يظهروا تلك المؤسسات على نحو من التفنن الذي يدعو الى الاعجاب ، ومن جملة تلك المساجد التي كان لها قسط من الأبهة والفخامة (الجامع الأعظم) الذي بناه بنو عبيد ٧٠٣ هـ ، فالجامع كما يصوره لنا ابو عبد الله التيجاني يكشف عن صورة جديدة تماما لتطور فن العمارة الدينية كما يذكرنا بنموذج المسجد الذي بدأ ينتشر في ظل الاسلام في بلاد المغرب .

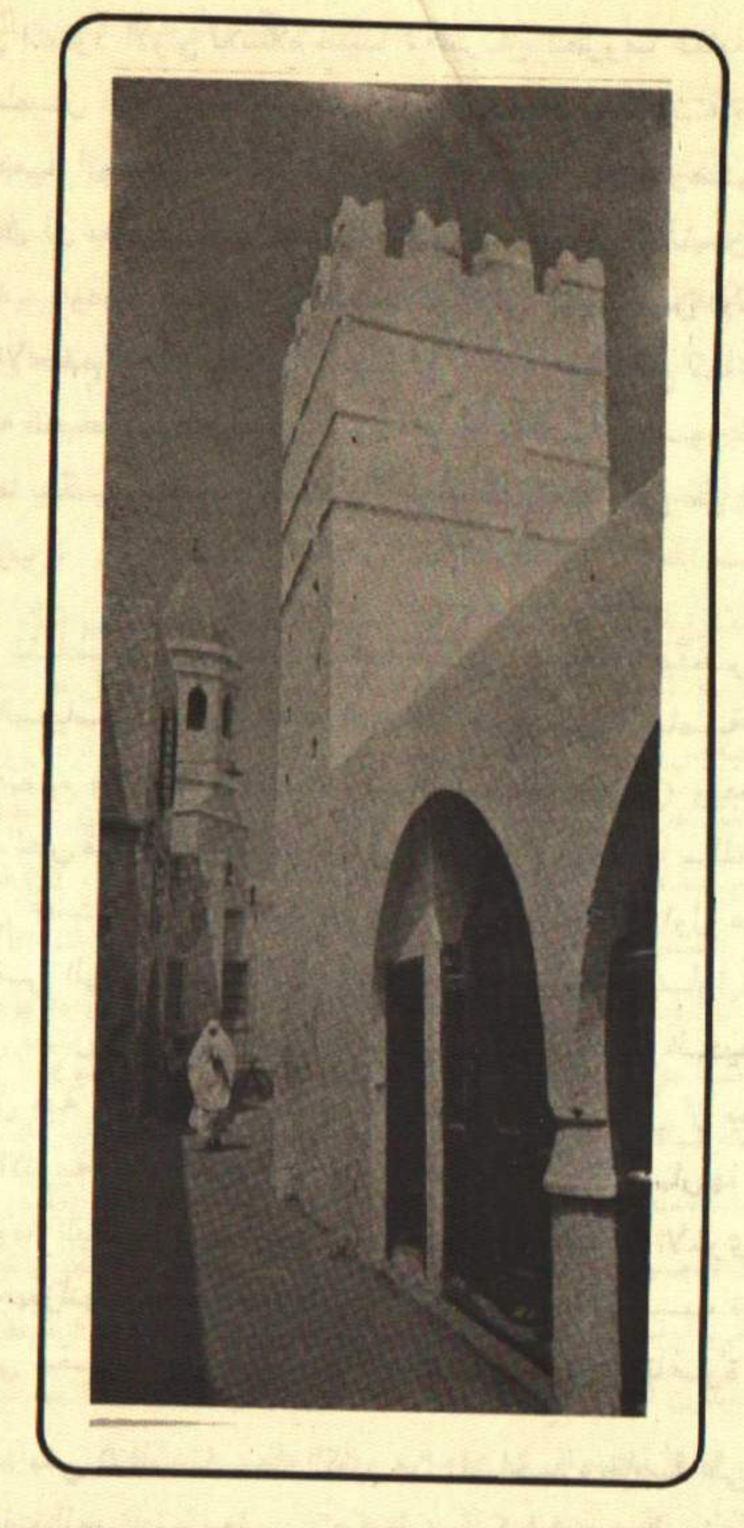
فكما ان نشاطات الحركة العمرانية تتأثر بسبب او بآخر بعوامل الاستقرار السياسي ، فان (نتائج الفن يفترض بصورة عامة حالة من توازن المجتمع وازدهار الاقتصاد وقوة السلطان) (٢) ويبدو ان مثل هذه الخصائص قد توافرت ـ سواء في بعضها أو في جلها ـ للفن المعماري الديني في عهد بني الاغلب فالمعروف انهم كانوا اول من ادخل الفن الشرقي الى افريقية ايام الفاطميين (٣) وقد التجأوا الى وسائل كثيرة لكي يبرزوا مؤسساتهم ـ الدينية منها أو غير الدينية ـ على نحو تتحقق فيه الروعة والابداع وقد دفعهم الحرص على ان يستفيدوا من بقايا المدن الاثرية ـ وما كان اكثرها ـ فاتخذوا من حجارتها واعمدتها الرخامية وما اليها مادة جاهزة اضافوها الى المواد الأخرى الداخلة في جملة تجهيزاتهم عند بنائهم للمساجد ، وهم في الغالب قد اتبعوا في تصميمها على نحو ما هو موجود في مساجد دمشق والقاهرة .

وفي عهد بني الاغلب تأسست الكثير من المساجد وخاصة على السواحل لتكون رباطات للعبادة ومحارس للمرابطين ، كما اصبح لهذه المؤسسات الدينية دور تلعبه بالنسبة لحراسة السواحل الليبية من اخطار الغزو

---

(٢) جورج مارسيه (الفن الاسلامي) ص ١٨

(٣) عبد العزيز بن عبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ص ٤٧ .



٦ ـ جامع الناقة ـ اقدم اثر ديني مازال يتحدى القرون العشر
التي تحطمت على عتباتـــه

المفاجيء حيث تكون بمثابة العيون الساهرة على سلامة البلاد، ويقال ان هذه المحارس كان بامكانها اكتشاف امر العدو في خلال وقت قصير من ظهوره في المنطقة الممتدة من الاسكندرية الى طرابلس في اقصى الغرب ، ويمكن القول ايضا بأن مثل هذه المحارس كانت من الكثرة بحيث يكون بمقدورها ان تقوم بمهمتها تلك بالدقة والسرعة التي يحدثنا عنها المؤرخون .

على ان اقدم اثر ديني احتفظ به التاريخ هو جامع (الناقة) الذي يعود عهد بنائه الى بداية قيام الدولة الفاطمية بمصر ، ويتداول الناس في طرابلس حادثة اقترنت بفكرة تأسيس الجامع في المكان الذي يحتله حاليا ـ بالفنيدقة خلف سوق المشير ـ مفادها ان المعز لدين الله الفاطمي رابع من تولى الحكم في اسرة عربية تونسية كان قد مر بمدينة طرابلس هو وعدد كبير من حاشيته ورجاله في رحلته المشهورة الى مصر التي اختارها لكي تكون مقرا جديدا لدولته ، وفي اثناء اقامته القصيرة بطرابلس احتفل به الأهالي احتفالا كبيرا يليق بخليفة ينحدر نسبه من بيت الرسول عليه السلام وكان رده على تلك الحفاوة البالغة أن ترك احدى نياقه المحملة بكنوزه الثمينة كهدية منه الى الشعب الطرابلسي الذي أكرم وفادته ، ويبدو ان الاهلين قد وجدوا ان استغلال تلك الهدية في بناء جامع في نفس المكان الذي عسكر فيه المعز وحاشيته منذ اكثر من الف عام فكرة صائبة وفي محلها وعليه قرروا بناء الجامع المذكور.

ويذهب البعض الآخر في توشية هذه القصة بحوادث جانبية حتى لتبدو في نسيجها العام اشبه بتلك الحكايات التي ترويها الجدات الى الأحفاد الصغار ، ولكن ليس لنا من خيار في رفضها أو تصديقها تماما كما يفعل الأطفال ، اذ يقبلون بتلك الحكايات بما فيها من ضرب الخيال ، خصوصا وان التاريخ لا يكاد يسعفنا بما يمكن ان يكون سندا قويا لاثبات هذه القصة أو نفيها .

يقع (جامع الناقة) بمدينة طرابلس خلف منطقة تجارية نشيطة دائبة الحركة وبما ان المباني المحيطة به تبدو في جلها عتيقة المظهر (وهي في الغالب دكاكين صغيرة متراصة بعضها مختص في بيع الحلي والاخرى لصناعة

النسيج) فان الجامع اختلط بهـذه المباني المتراصة حتى لا يكاد المرء ينتبـه الى وجـوده لأول وهلـة ، غير ان هـذا الجامع المتَواضع في هيئتـه ومظهـره يستطيع ان يثيـر فيك مـرآه شموخ الأثـر الصامـد امـام سطـوة القـرون العشر التي تحطمت على عتباتـه .

والجامع مربع الشكل غير كبير ، فسحة صحنه تكاد تساوي فسحة بيت الصلاة ولـه ثلاثة ابـواب : اثنان منها رئيسية يلج منها الداخـل راسا الى حيث تقـام الصلاة ، والثالث مستقل لكنه يفضي الى الميضأة الخـاصة بـه ، ويقـوم بيت الصلاة على خمسة وثلاثين عمودا غير متجانسة الأشكال والأحجام والالـوان ، ولا يحتـاج المـرء الى اي دليـل يرشده بأن هذه الاعمـدة الرخامية هي من بقايـا المـدن الرومـانية ، وترتفع فوق سطح الجامع مئذنـة مربعـة الشكـل مبنية على الطراز المغـربي لا يزيـد ارتفاعها على خمسة امتـار والى جـوارها ٣٢ (قبـة) صغيرة الحجـم نسبيا ، والجامـع بعـد هـذا كلـه ـ يتمتع بمكانـة خـاصة في قلـوب الأهلين ، ويرى الكثيرين منهم انه افضـل مكـان لقضاء فـريضة الجمعـة والأعيـاد الـدينية الاخرى ، بـل يعتقد البعض الآخـر بأن الصلاة فيـه لها اجـر مضاعـف عند اللـه .

وفي العهـد العثماني الأول (١٤٣٠ ـ ١٧١١ م) استجـدت مساجد كثيرة بمدينـة طـرابلس ، وهي تصور في معظمها نقلـة جديدة تماما في فـن المعمار الـديني وكان من الـواضح ان هـذه المساجـد قد استمدت طابعهـا العـام من فـن البلاد التركيـة التي انتعشت فيها العمـارة الـدينية انتعاشا عظيمـا منذ قيـام الامبراطـورية فيها ، وكانت المساجـد والمدارس التي بنيت في عهـد السلاطيـن العثمـانيين الأول تستلهم الفـن البيزنطي ، بل كانت في اكثـر الأحيـان تقليـدا ناجحـا لـه وعند ما مـد العثمانيون سلطانهم على اجـزاء كثيـرة من حـوض البحـر الأبيض المتوسط نقلوا الى هذه المناطق فنهم المعماري المولـد ، وكان نصيب طـرابلس قد ابـان عن نفسه وبشكل خاص في المساجد التي بنيت في ظـل الحكـم العثماني الأول ، نذكـر منها على سبيل المثـال : جامـع مـراد آغـا بتاجـوراء ، جامع شائب العين وقرجي ، ودارغوت وهـي تترجـم بحـق عن ذلك النمط من الطـراز المعمـاري التركي الوافـد على شمال افـريقيـة .

جـامـع مـراد آغـا :

عند ما كان مـراد آغـا يرابط في تاجوراء مع الذين هاجـروا مـن مـدينة طـرابلس فـرارا من حكـم الاسبان فكـر في بنـاء مسجـده الكبير بها وقـد استعـان في ذلك بالمسيحيين الذين قبض عليهم اثناء المعـارك الدائـرة بيـن البحريـة العثمانيـة والبحريـة المسيحيـة ، وهذا الجامع الذي ما زال يحمـل اسمه حتى الآن قريب الشبه ـ من الناحية المعمارية ـ بجامع الناقة ، وان كان اكبر منه حجما واعظم بناء وهو مثله ايضا في انه غير مزخرف ولا تعلـو جـدرانـه ايـة نقـوش ، وفي اعـلاه تظهـر به مجموعة من الفتحات اجزاؤها العليـا ضيقـة وواطئـة وقد كان فيما مضى لهـذا الجامع مئذنـة ، ولكنهـا تهـدمت سنة ١٩٠١ وكانت تحتل الجهـة الغربيـة منـه .

وتشتمـل بيت الصلاة على اعمدة رخاميـة لا تعلـوها ايـة تيجـان امـا محرابـه فعبـارة عن فجـوة صغيرة مقببـة في زوايـاها اعمـدة رخـاميـة صغيـرة وفي قوسها الاعلى قطـع من الرخـام الابيض ومهما يكن من امـر فان قيمـة هـذا المسجـد معقودة اساسا على اهميته كأثـر معماري يعود تاريخـه الى بدايـة الحكـم العثمـاني في ليبيـا ، واذا اعتبرنا ان هـذا الجامـع قـد بنـي في حـوالي ١٥٥٦ م فان هذا كاف للدلالة على مـدى اهميتـه بالنسبـة للمؤرخيـن والباحثين الذين يودون ان يقفوا على مراحـل التطور الذي مـر به فـن المعمـار الشرقـي الاسلامـي في ليبيـا .

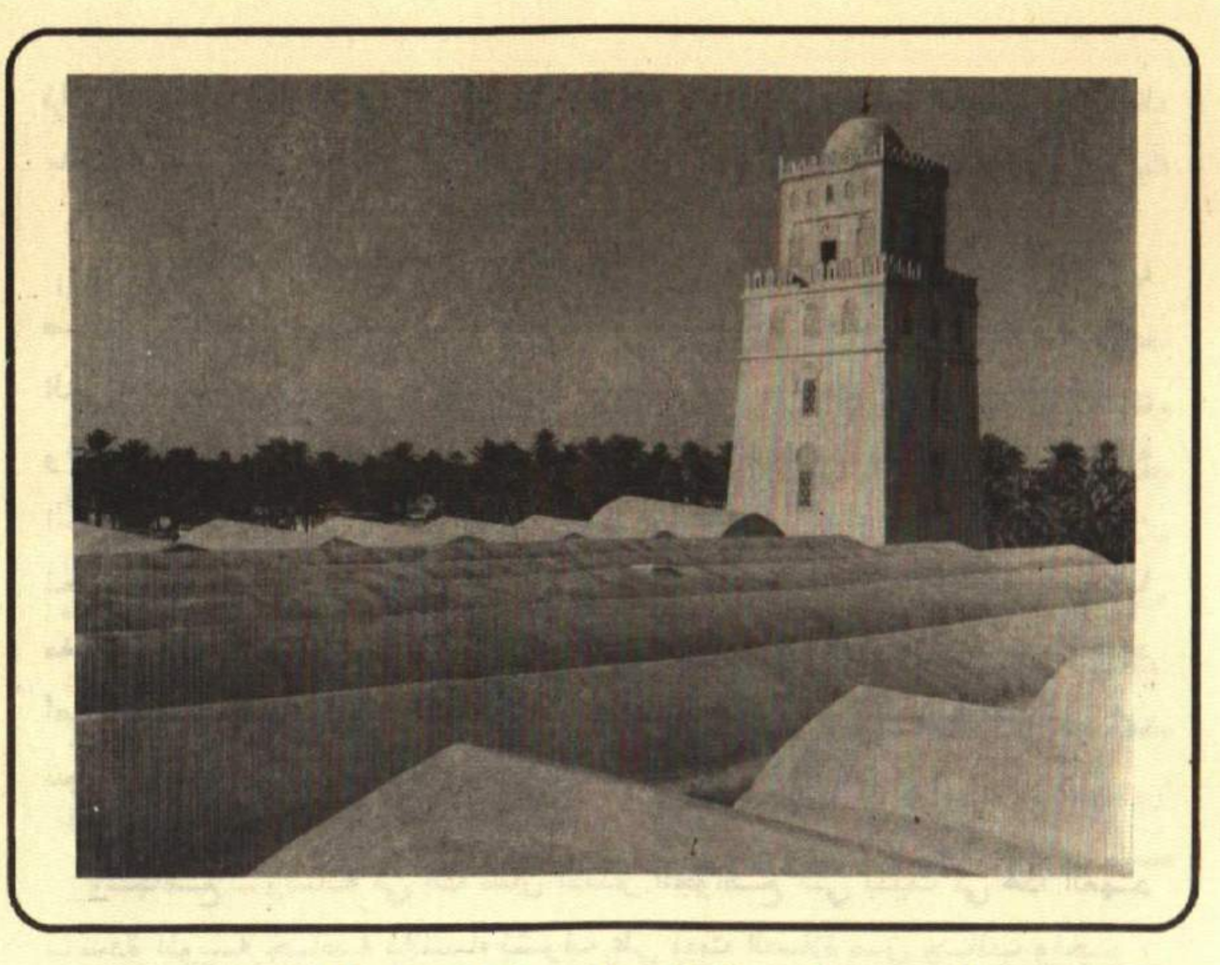
جـامـع شائـب العيـن :

يعتبـر جامع شائب العيـن من اعـرق واقـدم جوامـع طـرابلس ، وهـو وان لم يكن من افخمها او اكثـرها تفننا وروعـة في البنـاء والزخـرف الا أن ميزتـه الكبرى في بساطتـه وتواضعه الباديان عليـه ، ففيهمـا في الحقيقـة ما يغني عن كل زخرف وزينة وفخامة . يعود تاريخ بناء الجامع الى الفترة الـتي تولى فيها محمد باشا شائب العين ولايـة طرابلس الغـرب (١٠٩٨ ـ ١١١٢ هـ) وكان الرجل (خيرا نقيا نزيه النفس واسع الصدر حسن التقى

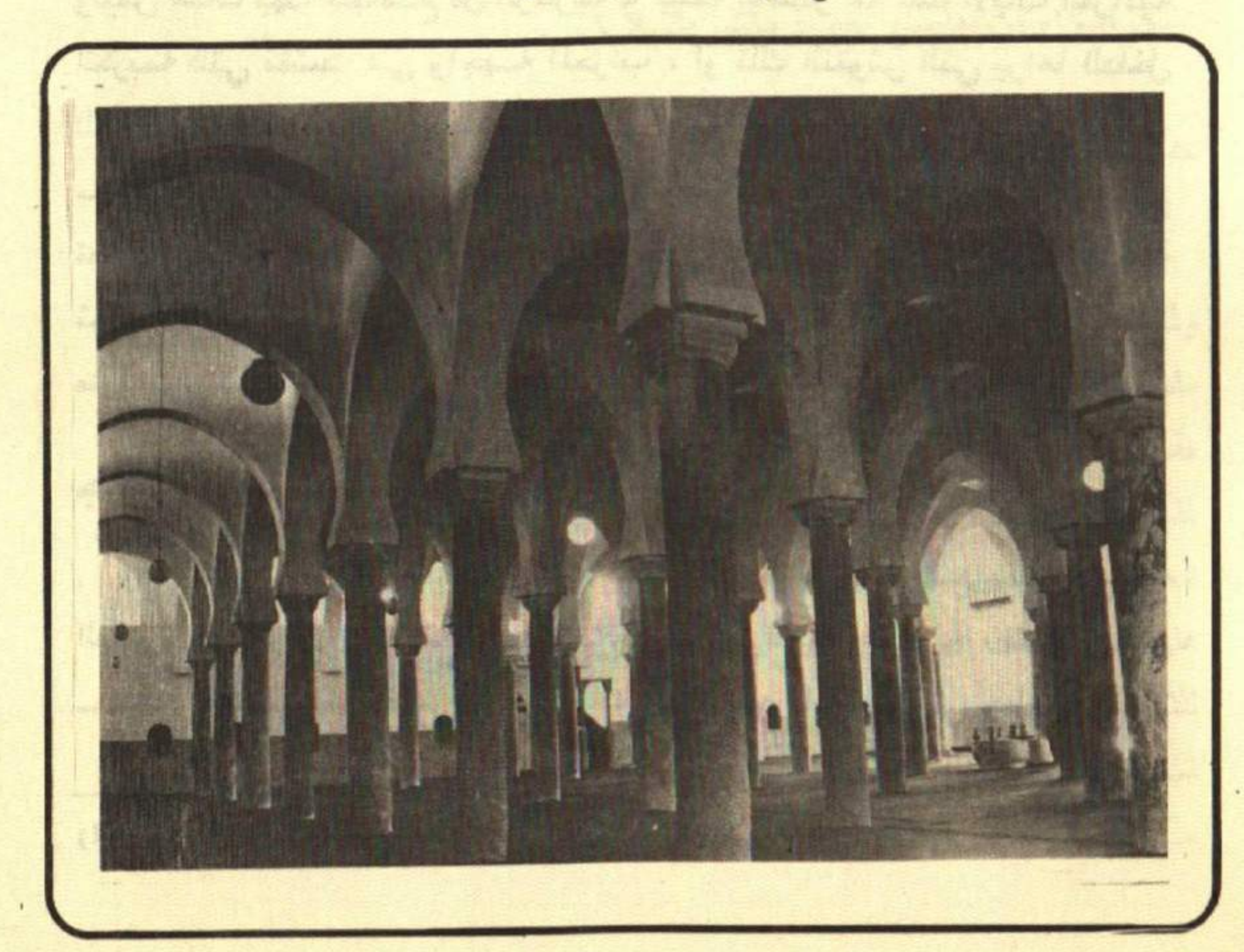
---

(١) واخيرا اعيد بناء مئذنة الجامع بعد أن تهدمت في عام (١٩٠١) .

٧ ــ كان لجامع مراد آغــا بتاجــوراء مئذنة منفصلة ولكنهــا تهدمت في عــام ١٩٠١



٨ ـ جامع مراد آغـا بعد أن استعاد مئذنتـه



٩ ـ جامع مراد آغـا كما يبدو من الداخـل

ذا رأي وحزم وروية) (٤) احب ان يترجم تقواه وبره وحبه للخير سلوكا باقدامه على بناء الجامع الذي ظل يحمل اسمه طوال ثلاثة قرون تقريبا .

يقع جامع شائب العين في القسم الشمالي من سوق الترك ، وسط حي صناعي وتجاري نشيط والجامع كبير من حيث الحجم بحيث يشرف على الحي المحيط به من جهاته الثلاث له اربعة ابواب اهمها الباب الرئيسي والباب الجانبي وكلاهما يفضيان الى سوق الترك . ويشتمل بيت الصلاة الخاص بالجامع على تسعة اعمدة تبدو في مظهرها العام متناسقة الأحجام ، تعلوها تيجان ذات زخارف والوان زاهية ، وبما ان الأعمدة جميعها مغطاة بدهان يكسوها من القمة الى القاعدة فانه يكون من الصعب تحديد أصل حجارتها ، وبين العمود والآخر ترتفع اقواس دائرية الشكل هي تجويفات لقباب المسجد البالغ عددها اثنى عشرة قبة .

وللجامع ـ وشأنه في هذا شأن اكثر الجوامع التي بنيت في هذا العهد ـ سدة علوية خاصة بالنساء تشرف على بيت الصلاة من جانب واحد ، وليس هناك بهذا الجامع من الزخرف ما يلفت النظر عدا تلك الآيات القرآنية الكريمة التي نقشت على واجهة المحراب ، أو تلك النقوش التي يراها الداخل اليه فوق مدخل بيت الصلاة المطل على سوق الترك ، وبالضبط على خشب بابه حيث يبدو النقش محفورا على واجهته ، والباب على وجه العموم قطعة فنية تشهد ببراعة الأيدي التي انجزتها ، وللجامع مئذنة مستقلة ثمانية الشكل وتشتمل على شرفة واحدة ، ولا يزيد ارتفاع المئذنة على ١٤ مترا تقريبا .

جامع درغوت باشا

وفي سنة ٩٦٤ هـ قدم درغوت باشا الى طرابلس ، وقد تميزت تلك الفترة القصيرة من ولايته بعدة انجازات عمرانية هامة ، فقد اهتم ـ فيما اهتم ـ بوضع الاستحكامات ، وتشييد المباني وفي جملة ما اقترن

---

(٤) احمد النائب ، المنهل العذب منشورات مكتبة الفرجاني ، ص ٢٧٦ .

باسمه من هـذه الانجـازات جامعـه الذي بنـاه بالمنطقة القـريبة مـن بـاب البحـر .

يتكون الجامـع بوضعـه الراهـن من مساحـة مستطيلة الشكـل تتوسطها قاعـة الصلاة التي صمم تخطيطها علـى شكـل حـرف (آ) والـى الشمـال والشمـال الغـربي منها يمتـد فنـاء طويـل نلاحظ بـه سدة من الحجر ، تمتد حتى تلتصق ببنـاء المسجـد اما بيت الصلاة فهـو مقسم الى ثـلاثـة اقسـام يتكون القسم الاول منه من خمس اروقة تغطيها عشرون قبة دائرية تقـوم على اثني عشر عمودا . وقد ظهر على واجهـتـه آيـات قـرآنيـة وزخـارف نباتيـة وينتهي المنبـر في اعـلاه بقبـة صغيرة مقامـة على اربعـة عقـود مفصصة امـا القسمان الجـانبيان من قاعـة الصلاة فيتكون كل منهما من ثلاثة اروقـة تغطيها (١٢) قبـة دائـرية مقامـة على اعمـدة رومانية وتبلغ مساحـة قاعـة الصلاة (٤٣٨) مترا مربعـا تقريبـا .

ورغـم ما بـدا من كبـر حجـم هذا الجامع الا انـه من الناحية الفنية يعتبر اقـل ثـراء من جامـع احمـد باشا مثـلا .

جـامـع احمـد بـاشـا :

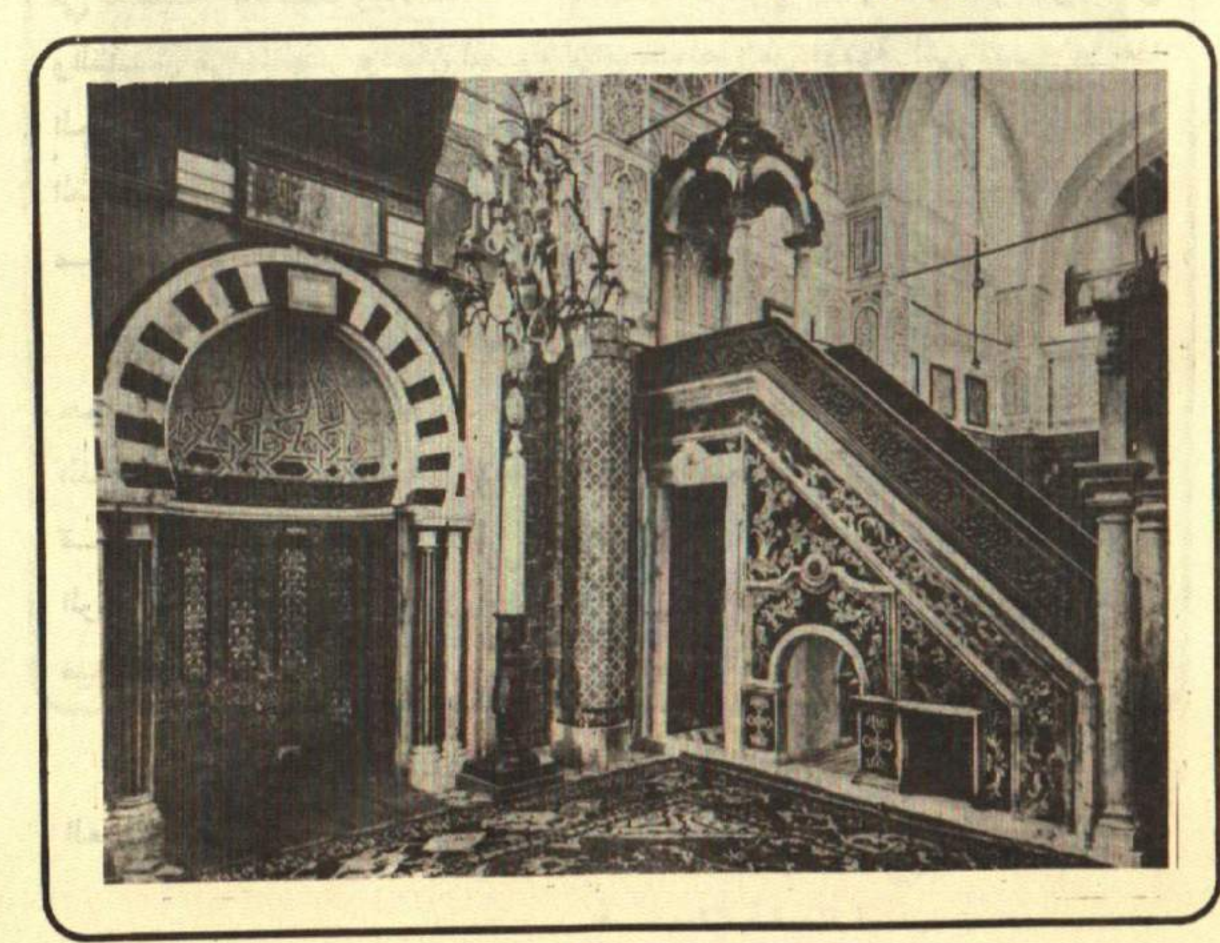
يعتبر جامع احمد باشا واحدا من اكبر وافخم جوامع مـدينة طـرابلس ، ولعلـه اعظـم اثـر دينـي وجـد في العهـود المتأخـرة على الاطلاق يعود زمن تأسيسه الى الفتـرة التي انشأ فيها احمـد باشا نوعا من الاستقلال بنيابـة طـرابلس الغـرب (١٧١١) نقول نوعـا من الاستقلال لأن ذلـك الاستقـلال ظـل في حاجـة دائمـة الى تدعيمه بتلك الفرامـانات الصـادرة عـن البـاب العـالي ، ويبـدو أن القـره مانلى قد أحب أن يخلـد ذكره فانشأ هـذا الجامع على غـرار تلك الجوامـع التي بناهـا قبلـه قورجي وشائب العيـن التمـاسا للثـواب وتقربـا الى اللـه ، فقـد كانت الفكـرة من تاسيس معظم الجوامـع تنطـوي تحت هـذا المضمون المشترك بين أصحاب المـال والسلطان علـى حـد سـواء .



١٠ ــ جامع احمد باشــا كما يبدو من الخارج وقد بدا الاهمــال واضحا عليه ويرجح ان الصورة التقطت له في أعقــاب الحرب العالمية الثانيــة



١١ — جامع احمد باشا يشبه مهرجان فني بسخي بألوان النقوش والزخارف الرائعـــة



١٢ — منبر جامع احمد باشـــا

يقع جامع احمد باشا في قلب سوق المشير ، وبالقرب من بوابته المطلة على ميدان الشهداء ويقال ان المكان الذي يحتله هذا الجامع كان فيما مضى جامع عمر بن العاص — وسبق أن اشرنا اليه في مقدمة هذا الفصل — ومن هنا يتبين ان المكان الذي اختاره احمد باشا ليقيم عليه مسجده الكبير مناسبا من الناحية التاريخية فضلا عن ناحية الموقع اذا اخذنا بعين الاعتبار قرب الجامع من القلعة التي كان يتخذها (الباشا) مقرا دائما لحكومته وحاشيته وجميع افراد عائلته ، ويبدو أن قرب المكان من القلعة ينطوي على اهمية خاصة بالنسبة - للباشا بالذات - الذي كان يؤم المصلين بالمسجد في المناسبات العديدة التي تقتضي منه الظهور وسط حشود من الجماهير ، ولا يجب ان ننسى ايضا ان الجامع يشتمل على مقبرة خاصة قد اتخذها مثوى لضم رفاته ورفات عائلته من بعده .

ويعتبر جامع احمد باشا احد الجوامع الكبيرة الحجم فهو يشتمل على مدرسة ومقبرة ومرافق اخرى ملحقة به ، وهو يشبه من بعض الوجوه جامع شائب العين الذي تحدثنا عنه فيما مضى ، ولكنه يختلف عنه في ناحية التنفيذ وبالأخص اذا اخذنا بالاعتبار كثرة الزخرف والنقش والتأنق في المظهر ويمكن للمرء ان يستخلص من الأبهة التي يبدو بها هذا الجامع سخاء تلك الاموال التي انفقت على بنائه كما يشير الى أن الفترة التي حكم فيها احمد باشا نيابة طرابلس الغرب كانت سعيدة نسبيا من بعض الوجوه .

والجامع - بعد ذلك - عمل فني ضخم قد اعدت كل قطعة من حجارته بمهارة فائقة تنم عن براعة الأيدي التي اعدته على هذا النحو الرائع الذي يخلب الألباب ، والداخل لهذا الجامع تنتابه رهبة قدسية تشع من جميع ردهاته وتنبعث من كل كوة من كوات قبابه ومحرابه الرخامي واعمدته المرمرية الستة عشر انه اثر فني شامخ يشعر المتامل فيه وكأنه في مهرجان فني زاخر بأنواع العطاء الرائع .

وقد كان الجامع مبعث اهتمام الدارسين والمؤرخين على الدوام ، وقد تمكن العديد منهم من رسم صورة معبرة عن الاعجاب الشديد بهذا الأثر التاريخي



١٣ ـ احد شوارع المدينة القديمة ويظهر في الصورة (جامع الدروج) وهو واحد من الجوامع الصغيرة العديدة التي تزخر بها المدينة القديمة

ويعتبر ما جاء في كتابات سيدتين اجنبيتين (٥) زارتا طرابلس في أوقات متباعدة نموذجا حيا لذلك الاعجاب بهذا الأثر الديني الخالد .

وفي العهد الايطالي لم تبن جوامع او مساجد لها قيمة تذكر ، ولكن اهم المنشآت الدينية قد شاهدتها ليبيا بعد عام ١٩٦٤ اي مع تدفق الثروة النفطية ، فقد شيدت العديد من الجوامع في مختلف انحاء البلاد ، وفازت مد نة طرابلس بالنصيب الاوفر منها ، وبعضها يعد اضافة كبيرة الى ثروتنا من لفن المعماري الاسلامي ، وهي تحتاج الى جهد خاص ومركز لدراستها وتتبع ما تتفيؤه من آيات الروعة والجمال .

(٥) ر. توللي في كتابها (عشر سنوات في بلاط طرابلس) (١٧٨٢ ــ ١٧٩٢) حابل تود في كتابها (اسرار طرابلس) ١٩٠٥ .

ســـور طــرابلس

ما مــن شك في ان مدينــة طرابلس كانت مسورة تسويرا جيــدا ، ولم تكن تتجــرد من اسوارهــا الا في خــلال فترات قليلة من تاريخها ، ويمكن القــول باننا نستطيع الاحاطــة بجزء كبيــر من المعلومات العــامــة فيمــا يختص بالتطورات التي طــرات على اسوار المدينة في حقب زمنيــة مختلفــة ، ولكننا اذا اردنا ان نجازف في التوغل في استبطان تلك المعلومات المتــوافــرة لدينا نجد اننا كثيرا ما نصطدم بواقع المشكلة ، ذلك ان الوصول الى معلومات دقيقة وواضحــة بشكلها التفصيلي عن التطورات التاريخية لحصون واسوار طرابلس يكــاد يكون ضربــا من المستحيــل في ظل المصادر التاريخية المتوافــرة لدينا حتى هــذه اللحظــة .

ومهما يكن من امــر فان المؤرخ مضطر ازاء هذه المشكلــة ـ ان يستخــدم كــل امكانيات التصور لتذليــل الصعاب واستنطاق التاريخ ، واستقراء احداثه قبــل الــوصول الى شيء منهــا .

واذا كنا نواجــه في اكثــر الاحيان نقصا شديــدا في معلوماتنا عن معالــم مدينــة طرابلس القديمة الا ان هــذا النقص يتبدى لنا على اشــد مــا يكــون بالنسبة للفتــرة التي حكــم فيها الفينيقيون المدينة وذلك لانعــدام الأثــر الذي يشيــر الى المــدينة الفينيقيــة ، والذي يمكن ان نقيــم عليه استنتاجات قد تساعــدنا على استحضار ولو القليــل من المعلومات ، ونحــن اذ نعتــرف بفشلنا في الحصول على معلوماتنا عن (أويا) الفينيقية ، فلم يبــق لنا من شيء الا ان نقيــم التصورات مقــام الحقائــق ، واذا كان ذلك كذلك فاننا نود هنا ان نستخدم القاعدة العامــة في الوصــول الى بعض المعلــومات الخــاصة ، فالمعــروف ان الفينيقيين قــد اخــذوا بنظــام التسويــر وطبقــوه على سائر المدن التابعة لهم سواء في لبنان موطنهم الاصلي او في قواعدهم

البحريـــة التي اتخـــذوها بعـــد ذلك في شمال افريقيـــة ، واذا علمنا ان التاريخ قـــد أبقى لنـــا على معلومات يمكن الوثـــوق بها عن أقـــرب تلك المـــدن قرطـــاج من خلال الوصف الذي تركه لنا المؤرخ « بولبيس » لهيئة الاسوار والحصـــون التي بناها الفينيقيون حول مدينتهم هذه وهو وصف ينبىء عن عظمة الطريقة التي اعدت بها) وعلى هذا الاســـاس بـامكاننـــا ان نتصور في المقـابـل بان الفينيقيين قد اقاموا اسوارا على نحو ما حول مدينة طرابلس (اويا) غـير اننا لا نستطيع أن نتمـادى في تصورنا هـذا الى حـد التوغـل فـي حيثيـات كثيرة تتعلـق بشكل هـذه الأسوار كأن نحـدد طولهـا أو عرضها والحجـارة التي استعملت في بنائها وما الى ذلك ـ وان كنا نستطيع أن نتخيـل بأنهـم قد فعلوا ذلك بأقل تكلفة من تلك التي حظيت بها مدينة (قرطاج) باعتبـارهـا العاصمة واكبر قواعدهم البحرية بشمال افريقية .

ولم يكن عندنا من المعلومات المتصلة باسوار طرابلس في العهد الـروماني ما نضيفه على ما لدينا منها في العهد الفينيقي (1) ، ومع ذلك فان للمـرء ان يقـول بأنـــه في الامكان أن نتلمس شيئا منها على ضوء بعض المكتشفـات الأثريـــة القليلة التي توافـرت لنا عن مدينة طرابلس الرومانية ، فقـد امكـن تحديـد بعض من هـذه الأسوار موزعـا على امتـداد مساحة من الأرض التـي يعتقـد انها قد شغلتها المـدينة ، واذا كانت هذه الكشوفات القليلة لا تحـدد مـواقع الاسوار وامكنـــة امتدادها الا أن واحـدا من المـؤرخين هـو المستـر هـ. ا. ل هاينـز يرجح بانها كانت موجودة على نفس الخط الذي قـام عليـه السور الاسلامي بعـد ذلك بقرون ، والذي كان يمـر من بـاب الجديد الى برج الكرمـة حيث شارع سيدي عمـران الآن ثم يتجـه الى الشمال الشرقي الى دار البارود ولا بـد كذلك من ان نضيف هنـا بان أسوار طـرابلس كانت على نحو ما ذات تحصينـات قويـة تتناسب واهميـة الـدور الـرئيسي الذي بـدأت تؤديـه داخـل مجموعـة (الأمبوريـا) وبالضبط منذ أن نقـل (سيبتمـوس سيفيـروس) العاصمة اليها حسب ما ورد ذكره في احـد الفصول السابقـة .

(١) يمكن التوسع في هذه المعلومات بالرجوع الى كتاب مدنية المغرب (الجـزء الاول) احمـد صفـــر .

والذي يزيد من تاكيد هذا الراي أن الرومان قد اعتمدوا في سياستهم العسكرية على جعل المدن الساحلية كخطوط اولى للدفاع عن المنطقة وهي بمثابة الدرع الواقي ضد اي اعتداء خارجي ، ومن هنا فانه يغلب على الظن بأن هذه المدن الساحلية لا بد انها كانت تتمتع بنوع جيد من التحصين ، والقدرة على الدفاع على نفسها ضد أي اعتداء ياتي اليها سواء من الداخل أو من الخارج ، وعلى هذا الاساس فقد كانت طرابلس ذات اسوار وحصون للدفاع على نحو ما ، وقد ظلت موجودة الى ان قام الوندال باجتياح المنطقة حيث استولوا على المدينة وقاموا بتجريدها من اسوارها .

لم تكن السياسة العسكرية التي اتبعتها الحاميات الوندالية في المنطقة لتبقى على (اية استحكامات تتيح فرصة في صالح العدو) (٢) ، وقد اسفرت سياستهم تلك على الحاق التخريب الشامل بكل التحصينات التي اوجدها الرومان وبذلوا في سبيلها الجهد والمال ، كذلك لم يكن بمستطاعهم في خلال الفترة التي حكموا فيها ولاية طرابلس ان يوفروا لأنفسهم استقرارا يتيح لهم اي نوع من التعمير أو اضافة شيء من أعمال الاصلاح والبناء على ما كان موجودا من قبلهم ، كل هذا زاد من صعوبة المهمة عند البيزنطيين عند ما آلت اليهم افريقية الرومانية برمتها ، ويمكننا ان نتصور ما كان عليهم ان يبذلوه في سبيل اعادة ما كانت قد فقدته تلك المدن من اسباب الحماية والتحصين لنعرف اية اعباء كان عليهم أن يقوموا بها وسط تلك الكوارث التي المت بهذه المنطقة ، ولقد كان في عصر (جوستينياس) ـ ذلك العصر الذهبي الذي نشطت فيه الحياة العمرانية وامتدت فيه يد الاصلاح لتصل لكل اطراف الامبراطورية البيزنطية الواسعة ما يوقد الهمة في النفوس لمباشرة العمل لاعادة الحياة لمدن طرابلس الى سابق عهدها ، ففضلا عما قاموا به من اصلاحات جديدة تتمثل في اقامة كنائس ، وبناء حمامات في كل من مدينتي لبتس مانيا وصبراتة فضلا على ذلك فقد اهتم البيزنطيون باعادة بناء الاسوار الى تلك المدن وكانت مدينة طرابلس احدى تلك المدن التي اعادوا اليها اسوارها ضمن ذلك

---

(٢) هايز . آثار طرابلس ، الطبعة الانجليزية .

المخطط الشامل لتسوير المدن وتحصينها وقد بقيت طرابلس مسورة حتى مجيء عمرو بن العاص لفتحها عام (٢٢ هـ) .

فبعد أن استسلمت المدينة لجيوشه عقب حصار دام شهر وقيل شهرين ـ أمر بهدم اسوارها وذلك خشية أن تستغل المدينة لمناواة الوجود العربي الذي لم يكن قد عزز أركانه في شمال افريقية ، ولا بد ان مثل هذا الاجراء الوقائي قد اتخذ لعدم توافر الثقة التامة باستقرار الوضع لمصلحتهم كذلك فان عدم وجود قوات دائمة مرابطة في المنطقة ، واضطرار العرب الفاتحين للتحرك بجيوشهم لقمع حوادث الشغب والعصيان كل هذا لا يترك مجالا للاطمئنان لوجود تلك الاسوار والاستحكامات التي يمكن أن تستغل استغلالا سيئا ضد تحركات الجيوش العربية اثناء قيامها بواجباتها لاقرار الأمن في المنطقة لهذه الأسباب ولغيرها أمر عمرو بن العاص بهدم أسوار مدينة طرابلس وذلك بمجرد أن فرغ من فتحها واغلب الظن أن المدينة بقيت بغير تسوير لسنوات طويلة بعد ذلك .

وفي عهد بني الاغلب (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ) يجد المؤرخ همة جدية وتوثبا نشيطا لأعمال الاصلاح والتعمير قصد تامين ازدهار مملكتهم عن طريق اقامة العديد من المنشآت المعمارية ، وعن طريق الأعمال ذات النفع العام .

وقد انعكست تلك الجدية وذلك التوثب النشيط في تامين دفاع جيد للمدن التابعة لولايتهم بافريقية ، وكانت مدينة طرابلس احدى هذه المدن التي اهتم الاغالبة بتقوية اسوارها ، واستحداث اجزاء اخرى واضافتها اليه ، ففي عهد هرثمة بن اعين تم بناء سور طرابلس من جهة البحر على يد ثقته زكرياء بن قادم ، ثم زاد ابو الفتح الصقلي في اتقانه ورفع بنائه فعندما كان الرحالة التونسي ابو عبد الله التيجاني (٧٠٦ ــ ٧٠٨ هـ) مقيما بطرابلس ، راى بنفسه ما يجري من اصلاحات على اسوارها كما لاحظ أن للمدينة سورين احدهما يلي الآخر وكان السور الخارجي اقصر من السور الداخلي ويسمى بالستارة ، وقد استحدث هذا النظام في تسوير طرابلس في بداية القرن السابع الهجري وبالضبط في عهد

أبي محمد عبد الواحد الحفصي كما امتدح ما وجده من أثر العناية البادي على الاسوار ، وما كان يقدمه الأهالي من عون مالي طوعي لضمان اصلاحها وترميمها كلما دعا الداعي الى ذلك ، ومن اشهر ابواب المدينة على عهد بني الأغلب باب زناتة (باب الجديد الحالي) وسمي بهذا الاسم لأنه يجيز الى مضارب قبائل زناتة البربرية في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، وباب هوارة (أو باب عبد الله) وهما يشكلان منفذا لبابين احدهما موجود على سور المدينة بالداخل والآخر على سورها الخارجي (الستارة) والبابان يشكلان منفذا رئيسيا للوافدين على المدينة من جهة الشرق ، وفي الغالب ما يكون قد سمي بهذا الاسم لانه يفضي الى قبائل هوارة البربرية الضاربة شرق المدينة ، ولعل الباب الأخضر وباب البحر هما المنفذان اللذان يطلان على البحر من الناحية الشمالية الشرقية من المدينة بجوار القوس الروماني المشهور ماركوس اوريليوس .

وبالرغم من أن المعلومات تكاد تجمع على أن مدينة طرابلس كانت تتمتع بامكانيات دفاعية كبيرة (بل ان أكثر هذه المعلومات نجدها تثنى على العناية التامة باصلاح اسوارها) غير أنه مع ذلك قد يمر وقت تصرف فيه همم اهل البلاد عن مباشرة اهتمامها بالسور ، فتترك أسوار المدينة لكي ينال الاهمال قدرا غير قليل منها والحقيقة فقد كانت مباشرة مهمات الاصلاح والترميم عبئا ضخما يحتاج دائما الى توظيف المزيد من الجهد والمال ، وقد يحدث في فترات الركود الاقتصادي وفي عهود الفوضى أن تنعدم الأسباب لتوفير امكانيات جيدة لأعمال الاصلاح .

وفضلا عن هذه العوامل الاقتصادية والسياسية فقد يحدث ان تقع المدينة في أيدي الثوار والعابثين والمخربين حيث تكون لقمة سائغة لأعمال العنف والتخريب والتهديم ، وكان جزء كبير من هذه النقمة يصب على مرافق المدينة الدفاعية في عهد بني الاغلب ، وفي حوالي قرن من الزمان وقعت ثلاث ثورات استشرى فيها الفساد وعمت الفوضى نذكر منها ما أورده الدكتور احسان عباس في كتابه « تاريخ ليبيا » :

١ ـ ثورة رجل اسمه ابو عصام التف حوله جماعة ممن يرون رأيه ،

ولكن هـذه الثـورة قد احبطت بمجرد ان وقع هـو واتباعـه في قبضة ابراهيم بن الأغلـب .

٢ ـ ثورة الجنـد عند توليـة عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب على طرابلس حيـن وليها سنـة ١٩٦ هـ .

٣ ـ ثـارت هوارة وذلك على اثـر عـزل عبد الله وتـوليـة سفيـان بـن المضاءة ويبدو ان هذه الثـورة (هي ثالثة الاثافى) اذ استطاعت جمـوع هوارة بشقيها الكبيـرين (عيـاض) و (وهب) ان تتمكـن من تخريب طرابلس وتهديم جـزء من اسوارها ، وذلك بعد ان اجلـوا عنها جندها الذين فـروا هاربين الى ابـراهيم ابن الأغلب بالقيروان . وقد سارع الأخيـر باعـادة ما تخـرب من سور المـدينة وبذلك استطاعت المدينة ان تصمد امـام ثورة هوارة عندما اعادوا الكرة وهجموا على المدينة بمساعدة الرستميين .

وقد ظلت طرابلس تتمتـع بمكانة استراتيجية بالغـة الاهميـة بالرغم مما لحقها من كوارث خـلال القـرنين اللذين تعاقبـا على انقضاء حكـم بنـي الأغلب .. فما تـزال تـعتبـر حتى هذا الـوقت من اهـم المـوانيء البحـريـة التي أغـوت النـورمنديين ، وجعلتهم يرسلون بجيوش لاحتلالهـا واخضاعهـا لحكمهم ، وعندما تم لهم ذلك عام ٥٤٠ هـ اخـذوا يقومون باصلاحـات على اسوارها ، وليس من المحتمل ان يكونوا قد توغلوا كثيرا في احداث اصلاحات جوهرية على معالم اسوار طرابلس ، وظلوا عـاكفين على مهمتهم تلـك لمدة ستة اشهر حسب ما روته لنا مختلف المصادر التاريخية .

وفي الفتـرة التي حكـم فيهـا الأسبان مـدينة طـرابلس (١٥١١ ـ ١٥٣١) وفـد على البلاد الكثير من الرحالـة والمؤرخين الذين سجلـوا انطباعاتهم عن المـدينـة بشكل يساعـد على تلمس اوضاعها العامـة في وصف واحد ممن جاؤوا برفقة الحملة الاسبانية الى مدينة طرابلس ، ما ينطوي على اهميـة قصوى باعتبار انـه يقدم لنا فيها بيانات ميدانية عن الاسوار في ذلك الوقت ومـا ورد عنـه قـولـه :

« ان مدينــة طــرابلس تقــع في سهل وهي مربعــة ويحيط بها سور يمتد اكثــر من ميل ولها سوران مزدوجان تحف بهما خنادق منخفضة وضيقة ، السور الاول صغيــر ومنخفض اما السور الثاني فهــو مرتفع جدا وضخامته متناسبة مع الأبــراج ، وهي ذات مواقــع دفاعية قويــة وضخمة وهي محاطة بالبحــر من جهاتها الثلاث » وهذا الــوصف يؤكد ما جاء آنفــا في وصف ابي عبد الله التيجــاني وذلك قبــل قــرنين من الاحتــلال الاسباني لطرابلس ، وليس هنالك مــا يضيفــه عليه سوى ذكــره بان البحــر كان محاطــا بالمدينة من ثــلاث جهــات ، وقد كان هــذا في عهـد بني الاغلب عمــل غير ناجــز .

وفي الحقيقــة فقد وجــه الاسبان عنايــة خاصة بتقويــة اسوار طــرابلس ورفــع حصونها ، وذلك رغبــة منهم في ايجــاد الضمانات اللازمة لأمنهم المهدد من قبــل الأهــالي الذين ما فتئــوا يرفعــون رايــة المقاومة في وجههم منذ ان حلــوا غــزاة للبلاد غيــر ان اهــم تلك الاصلاحات التي قامــوا بها قد تركــزت في القلعــة ، وقــد تــم ذلك على حساب السور اذ نراهم قد هدمــوا جــزءا منه (٢٠٠ خطوة) وذلك للانتفاع بحجارته في تــدعيم تحصينات القلعة ، وقد جاء في تقرير مفصل كتب من قبل بعثة فرسان مالطــة عن حالــة الاسوار والتحصينات الخــاصة بمدينــة طــرابلس في أخــريــات العهــد الاسبــانــي ما يشيــر بأن المــدينة ليست جيــدة التحصين فأسوارها مهــددة بالانهيار في أكثــر من مكان كما ان الاسوار الاضــافيــة ليست مجــديــة خصــوصــا وأنها بــلا ابــراج وخنادقها ضيقة وليست عميقــة ، ومما يلاحظه المــرء وهو يوازن بين ما ورد في هــذا التقرير وما جــاء في روايات الذين كانوا شهود عيان ابان الحملة الاسبانية وبعدها ، المفارقات في تقويم الحالــة العامــة الــتي كــانت عليها التحصينات بطرابلس وهذا يشكل في حــد ذاته مصدرا حيويا للتساؤل ، اذ ليس من المعقول ان تؤول اوضاع التحصين في المدينة الى ذلك النحو من الخراب وفي وقت قصير من الزمن .

وعند ما تولى فرسان مالطة (١٥٣١ ـ ١٥٥١) زمــام الأمور في المــدينــة على نحــو ما ورد في الصفحــات المتقدمــة من هــذا الكتاب اخــذوا يقومــون بالعديــد من الاصلاحات على مواقــع من اسوارها كذلك فقد قامــوا باضافــة

الأبــراج حسب ما ورد ذكــره في الفصل الذي خصصناه لقلعة طرابلس وهــو كــاف لــرسم صورة عامة عن نشاط فرسان مالطة في مجال التسوير والتحصين والبنــاء بصــورة عــامــة .

وبعــد اقــل من عشرين عــاما آلت مدينة طرابلس الى الحكــم العثمــاني بعــد ان تمكن سنان باشا من دحــر حاميــة فرسان مــالطــة وارغــامهم على التسليم الا انه خلال المجابهة بالمدينة التي استمرت من ٨ الى ١٤ اغسطس ١٥٥١ (اي بعد اسبوع من نشوب القتال) تلقت المدينة قصفا مركزا من قبل مدافع الاسطول التركي الامر الذي ترتب عنه الحاق اضرار بالمباني والاسوار، ويبدو ان التدميــر كان بالغــا الامــر الذي زاد من عــبء اصلاحهــا بعد ذلك .

واذا كنا لا نستطيع ان نحصى ما قام به الولاة العثمانيون من اصلاحات الا اننا لا نشك في ان المــدينة نالت قسطــا من الحظوة في بعض عهود حكمهم ويبــدو ان الاصلاحات في بعض الأحيان قد اتسمت بالتغيير الجــذري ممــا جعــل البعض ينسبون أسوار المــدينة الى (دارغــوت باشــا) الذي كان والي طرابلس بين عام (٩٦٤ ــ ٩٧٣) فقد كان الرجل يعلــم جيــدا لماذا كانت الاسوار مطلوبة فاتجه الى العناية بها كما اهتم ايضا بتقوية الاستحكامات ، ويمكن القــول ان طرابلس كما تصورها لنا اقــلام المــؤرخين كانت محصنــة تحصينــا جيــدا وان اسوارها عاليــة ومتينة ومزودة بستــة ابــراج ، وقــد تناقص عدد ابوابها الى بابين فقط (ولعل هذا النقص كــان يعنى مــن وجهــة التكتيك الحربي الكلاسيكي زيادة في الاحتياط لتأمين سلامة المدينة) كان احــد هذين البابين يطــل على الجهــة الجنوبيــة ناحيــة المنشيــة (ولعلــه بــاب هــوارة سابقــا) امــا الباب الثاني فكان منفــذ المــدينة على الجهة الغــربية ناحيــة المينــاء (ولعله باب زناتــة باب الجديد حاليــا) وهكذا كانت أوضاع طــرابلس قبــل ان تؤول الى حكــم القــره مانليين في أوائــل القرن الثامــن عشــر للميــلاد .

ويمكننا القــول بأن القــره مانليين قد اظهــروا في بعض من سنوات حكمهم اهتمامــا جديــا بتقويــة مرافق المدينة الحــربية وذلــك علــى النحــو الــذي يتناسب مع المركــز الحيوي الذي اخــذوا يحتلونه كقــوة مرهوبة الجانب فــي

حوض البحر الابيض المتوسط ، وبما ان جانبا كبيرا من نشاط اسطولهم البحري كان يوجه الى المغامرة والقرصنة لذلك فانه من البديهي ان تقوم تحديات ومصادمات بين الأسطول الطرابلسي واساطيل اخرى من جنسيات مختلفة ، وكانت تتطور تلك الصدامات البحرية بين الطرفين حيث تتدخل بطاريات السواحل ومدافع الأسوار في رد الفعل نفسه وقد كان أحمد القره مانلي مؤسس الدولة القره مانلية ١٧١١ م يتوقع ان يكون لنشاط اسطوله البحري رد فعل انتقامي مضاد يمكن ان تتلقاه المدينة في شكل قصف بالمدافع (وقد حدث هذا فعلا في عهده عند ما تعرضت مدينة طرابلس الى اشد الهجمات البحرية التي شملت باضرارها أجزاء كثيرة من مبانيها بما في ذلك القلعة والأسوار) لذلك فقد اهتم اهتماما خاصا بتقوية مركز المدينة الدفاعي من ريع الأوقاف الكثيرة التي كانت محصولاتها في بعض الأحيان ـ تصل الى الألف وخمسمائة بالعملة المتداولة في ذلك الوقت .

وفي عهد حفيده علي باشا القره مانلي الذي كان واليا لنيابة طرابلس الغرب عام (١٧٥٤ م) فترت تلك الهمة التي باشر بها جده الأكبر أحمد القره مانلي ادارة النيابة ويمكننا ان نعيد فتور همته الى أسباب كثيرة منها العامة ومنها الخاصة ، فمن الأسباب العامة ما يتعلق باستئنافه للمغامرات البحرية التي كان والده قد امر بايقافها فكان هذا في الوقت الذي يعنى زيادة في ثروته وثروة انكشاريته الا ان ذلك كان على حساب تجارته البحرية فضلا على هذا فقد مر بالبلاد قحط شديد والأنكى من ذلك اصابة المدينة بأمراض كان بعضها معديا كالكوليرا ، كما ادت الحروب التي نشبت بين قبائل أولاد سليمان والفرجان والداوون بترهونة الى خراب البلاد وتضعضع مواردها .

ومن الأسباب الخاصة ما يتعلق بالباشا نفسه فقد كان الرجل ميالا لحياة الدعة رغم ما كان يحيط به من مؤامرات فهو يلازم حريمه وينغمس في ملذاته تاركا شؤون البلاد لانكشاريته وقلما كانوا يحسنون تقدير المسؤولية . كل هذا ـ واسباب اخرى كثيرة ـ ساهمت بدورها

في رسم تلك الصورة السيئة التي انعكست على مدينة طرابلس بكاملها ونترك هنا شاهد عيان (وهو المسيو فليير نائب قنصل فرنسا في طرابلس (١) ليحدثنا عما لحق بالمدينة من خراب بالغ في هذا العهد كتب يقول : « ان الباشا يحكم رعايا متمردين ومناطق جدباء واكداس من الأطلال والخرائب وان المدينة التي يقيم فيها ليست سوى الخراب والدمار كما أن قصره ينهار من جميع جوانبه ، اما اسوار المدينة ـ بسبب تهدمها في كثير من اجزائها ـ تجعل ابواب المدينة عديمة الجدوى ولا قيمة لها ، اما الحصون والبطاريات المعدة بمدافع قديمة وفاسدة فانها تتداعى كلما اطلقت التحية للبوارج الحربية التي تاتي لالقاء مراسيها في الميناء ... »

واضح من هذه الصورة القاتمة التي رسمها لنا المسيو فليبر ما آلت اليه مدينة طرابلس من بؤس واهمال غير ان الحظ قد ابتسم مرة اخرى في وجه المدينة بعد ان تقلد زمام السلطة فيها ابنه يوسف باشا (٢) فقد كان للأخير طموح كبير تلين له الصعاب ، ويبدو ان الفتى قد وجد نفسه في وضع يشبه الى حد كبير ذلك الوضع الذي كانت عليه طرابلس في عهد جده احمد باشا (٣) بعد ان نشط اسطوله البحري في عملياته على نحو أشد ضراوة مما كانت قد الفته البلاد على مدار السنوات الاولى في حكمهم ، ولذلك فقد كان عليه هو ايضا أن يقوم بتعزيز تحصيناته ويزيد من قوة اسواره قبل أن يواجه ذات التحدي الذي واجهه جده الأول من قبل ولذلك فقد نشط ـ بهمة عالية ـ في تقوية مراكزه الدفاعية بالمدينة فبنى حائط السور الممتد قرب قصر الحكومة من جهة البحر الى دائرة الجمركي فضلا عن انشائه لعدة أبراج في بعض المواقع من السور وفي نقاط كثيرة خارج البلد ، بالنظر الى كثرة وان الاسرى كانوا مصدرا رئيسيا للايدي العاملة التي سخرت في بناء عدة تحصينات في نقاط عديدة من المدينة وخارجها.

(١) تولى حكم نيابة طرابلس الغرب ما بين (1794 ــ 1832) .
(٢) تولى حكم نيابة طرابلس الغرب ما بين (1711 ــ 1745) م .
(٣) كتب ملاحظاته هذه حوالي عام 1776 م .

القلعــــة أو قصــــر طــرابلس

تعتبر طرابلس هي ابرز المعالم الاثرية التي حامت حـولهـا آراء كثيـرة ، ولكن الكثير من تلك الآراء لم تؤد الى نتائج حاسمة ، فالبعض مـن المـؤرخين يـرى ان القلعـة قد قامت قواعـدها في العهـد الروماني والبعض الآخر يجعلها اثـرا من آثـار الغـزو الأسباني ، غير ان الكثير من أصحاب الـراي لا يكـاد يثـق كثيرا لا برومانيتها ولا باسبانيتها ، ويرجح ان تكون القلعة من مخلفات العهد الاسلامي ، وتؤيدهم في رايهم هذا حججا كثيرة لا يجدون صعوبـة في تلمسها والحصول عليهـا .

غير ان الكثير من تلك الآراء تظل غـيـر قاطعـة ، ممـا سحـب عليـهـا ظلا من الشكوك التي لا يتبين فيهـا المرء الرأي النهـائي ، ولا يـمـكــن للمـرء ـ والحــال كما ذكرنا ـ الا ان يسبر غـور هذه الآراء لدى من تناولـوا هـذا الموضوع بالبحث كخطوة في سبيل تقريب شقة الخلاف بين تلك الآراء المتنافـرة ، فالباروني مثلا قد حـاول أن يدلي بدلوه في المـوضوع ـ وهو وان لم يدعـم وجهة نظـره ببراهين مؤكـدة ومقنعـة ـ الا أن الـراي الذي تبنـاه يقـوم على ترجيح ان القلعـة هي اثـر من آثـار الحكم الأغلبـي ، ولا يرى أية سند يقوم كحكم على اسبانيتها الا كثـرة التفاصيل عنها في تلك الفتـرة من الحكم الأسباني ، سواء كان ذلك بواسطة المؤرخين الأجانب أم في كتب المؤرخين العـرب .

وربما تعود تلك الظنون التي حامت حـول اسبانية القلعة الى كثـرة مـا احدثه فيها الحكم الأسباني من تغييرات وتحويرات اتت على نواح متعددة فيها ، الشيء الذي كانت له الغلبـة على طابعها العـربي بحيث جعلها اقرب ما تكون الى الأثـر الاسباني منها الى الأثر العـربي ، فقد اهتـم الغـزاة الاسبـان ـ عند ما استولوا علـى مدينـة طـرابلس ـ بتقوية مواقعهم العسكرية داخـل

أسوارهـا كاجـراء مضاد للتحرشات التي كانت تبديها المقـاومـة العربيـة ضدهـم ، وبما ان القلعـة كانت احـدى تلك المـواقع العسكرية التي يتحصن بها جنودهـم ، فانها خضعت لمـا خضعت له مواقعهم العسكرية الأخرى مـن اصلاحـات ، بـل ـ كما يبدو لنـا من تفـاصيل تلك الاصلاحات ـ ان القلعـة قـد فـازت منهم بالقـدح المعلى من الاهتمـام ، فقـد (وجددوا القلعـة الشرقية من القصر المطلـة على الشارع المـؤدي الى زاويـة الدهماني وسيدي الشعـاب وسميت هـذه القلعـة باسم « القـديس جاكمـو » ، وسميت القلعـة الثانيـة التي تشبه في شكلها مقدمـة السفينـة والتي تشرف علـى شارع العزيزيـة « شارع امحمـد المقريف الآن » باسم « القـديس جورج » . امـا القلعة المبنيـة فوق المدخل الرئيسي للقصر فسميت باسم « القديسة بربرة » .

غير ان تلك الاصلاحات الكبيرة التي ادخلت على القعلة في هذه الفترة من الحكـم الأسبـاني لا يمكن ان تقوم دليـلا قاطعـا على اسبـانيتها ، وذلـك لمجـرد حـدوث بعض الاصلاحـات عليها ، فانـه من المـرجح ان تكون القلعـة ـ وكيفمـا كان وضعهـا وهندستها وطريقـة تشكلها المعمـاري ـ موجودة من قبل الغزو الاسباني بقرون طويلة ، وذلك في اصولها الرومانيـة والبيزنطية، وفي هيئتهـا العـربية الاسلامية ، التي عـرفت بها بعـد ذلك . ومـا تلـك الاصلاحـات التي اجـراها الأسبـان عليها الا حلقـة في سلسلـة طويلـة مـن الاصلاحـات التي اجـريت عليها في كل العهـود ، وبغض النظـر عن مـداها ، فانه ليس من المحتمل ان تكون اساسية بالقدر الذي يلغي معالمها الاولى . ومع ذلك فان الأثر يبقى دائما من حيث أصله ونشاته هـو اثـر للأيدي الاولى التي ابتنته أول مـرة ، وهذا يشجعنا على القـول برومانية القلعـة من حيث النشأة الأولى ، الا انـه من الـواضح ان الاصلاحـات التي ادخلها عليهـا العرب كانت كبيـرة جـدا ، وقـد تهيأ للحكـم العـربي في ليبيـا ـ الذي استمر قرونـا طويلـة ـ ما لم يتهيأ للحكم الأسبـاني القصيـر من الأسباب الـداعية الـى احـداث الاثـر والتغييـر . وفضلا عن ذلك فان التغييـرات الجذريـة التـي يحتمل ان يكون العرب قد قاموا بها بالنسبة للقلعة لهـا حوافزهـا ودوافعهـا الحضارية . فانهم ـ اي العرب ـ بالاضافة الى الاعتبارات الخاصة بتكتيكهـم العسكري ـ لهم ثقافتهم الخاصة التي تميزت بطابع مؤثر ، وهـو ما يجعلنـا

نميل الى القول بأن الحكم العربي لم يكتف بادخال الاصلاحات العامة الشاملة فحسب ، بل امتدت أصابعه الى اجتثاث أصول القلعة القديمة من أساسها ، حتى يقيم العرب عليها القصر الجديد الذي بنوه وفق مقتضيات ثقافتهم وذوقهم الشرقي المميز .

ومهما يكن من أمر ، فان المعلومات التي توافرت لدينا عن القلعة كانت تؤكد على الدوام وجود عنصر التغيير والتحوير الذي كانت تتعرض له القلعة من حين الى آخر ، وأكثر تلك المعلومات وثوقا ما يعود عهدها الى أوائل القرن السادس عشر ، ومن خلال تلك المعلومات نستطيع أن نلتقط صورة مميزة لملامحها الأساسية كما كانت تبدو بها في ذلك الوقت على الأقل ، فقد كانت تأخذ مكانها حيث هي الآن على وجه التقريب ، الا أنها ـ من حيث الشكل العام ـ كانت تبرز كصخرة كبيرة في وسط البحر . فقد كان الماء يحيط بها من كل جانب ، ولكنها كانت تتصل بالمدينة بجسر متحرك يمد نهارا ويرفع ليلا ، والذي لا شك فيه أن القلعة لم تبق على ذلك الوضع الذي عرفت به في أوائل القرن السادس عشر ، فمن المحتمل جدا أن ملامحها تلك قد تغيرت نتيجة للمد والجزر اللذين كانت تتعرض لهما البلاد من جراء تقلبها في أحضان حكومات متعددة المشارب والاتجاهات ، وفي كل مرة كان التغيير يترك بصماته عليها ، وهذا يجعل من الصعوبة بمكان أن نحتكم الى تلك البصمات في مسألة تتعلق من قريب أو بعيد بموضوع نشأتها أول مرة ، ومع تلك العهود التي تأتي وتلك العهود التي تدبر كانت القلعة تتعرض أيضا لفترات من الازدهار وفترات أخرى من الانتكاس ومثل هذا كان يتقرر طبقا للاهتمام الموجه اليها من جانب الحكومات المتعاقبة على ادارة المدينة ، وقد يزيد هذا الاهتمام وربما ينقص تبعا للأحوال الاقتصادية السائدة ، وبما أن القلعة كانت تشكل هي والاسوار التي تحيط بالمدينة الدرع الواقي الذي يحول بينها وبين الطامعين في غزوها ، سواء جاء هذا الغزو من جهة البر أم من جهة البحر ـ فان ذلك الاهتمام اذن كان مبنيا في مبدأ أمره على الصبغة المميزة لتلك الحكومات المتعاقبة عليها ومدى تعلقها بالحرب أو اهتمامها بالسلم ، ومقدار تلك العوامل المساعدة على ذلك ، فقد كان من المؤكد ـ

والحال كما ذكرنا ـ ان تتأثر هذه المرافق العسكرية بنوازع الاصلاح العسكري ومدى حرص هؤلاء الحكام على ان يكون موقفهم قويا ومعززا تجاه اي هجوم بري او بحري يحتمل ان يقع على البلاد .

ومن الثابت ان يكون هذا الاهتمام بالاصلاح من جانب اي حكومة من تلك الحكومات المتعاقبة صلة ما باستقرار الأمور في البلاد ، وما يترتب على ذلك من اسباب الزيادة في حجم نشاطات الحياة العامة ، ونخص منها النواحي الزراعية والتجارية ، وما يترتب على هذا من اثر على السيولة النقدية التي تشكل قدرة على الانفاق في الاوجه العامة ، وهكذا كان شأن القلعة دائما في كل العهود هي عرضة للعناية حينا والاهمال حينا آخر تبعا للظروف التي ذكرناها .

وفي بعض من تلك العهود التي مرت بها القلعة نقف على ما اصابها من اهمال ، كما كنا نرى ما حظيت به من اهتمام الولاة المصلحين ، بل كنا ـ كما هو الحال في العهود المتأخرة نسبيا ـ نقف على صورة واضحة المعالم مدعمة ببعض التفاصيل المتعلقة بالوضع الذي كانت عليه ، ولعل اقرب تلك التفاصيل الى اذهاننا ما ورد في التقرير الميداني الذي كتبه الوفد المرسل من قبل فرسان القديس يوحنا عام ١٥٣٥ لمعاينة الأوضاع التي كانت عليها مدينة طرابلس في اواخر العهد الأسباني ، وكان من ضمن الامور التي تناولها التقرير دراسة شاملة لحالة الحصون لتقدير مدى صلاحيتها قبل ان توضع تحت تصرفهم قبل جلاء الأسبان عنها .

ومما جاء في ذلك التقرير قولهم بأن القلعة قد تعرضت الى نخر قواعدها بفعل مياه البحر المالحة وهو اذ يخلص الى كون القلعة صالحة تماما لسكنى الوالي وحاشيته ورجال الجيش لكنه لا ينسى ان يشير أيضا لتلك الحاجة الماسة الى اجراء اصلاحات كبيرة عليها قبل ان تكون معدة اعدادا جيدا للقيام بمهمتها ، وبما ان ذلك الوفد لم يتمكن من معاينة القلعة من الداخل بسبب الخوف من العدوى من أمراض كانت قد تفشت داخلها في ذلك الوقت ـ فقد اكتفى بتقديم صورة لحالتها الخارجية العامة كما قام بقياس لمحيطها ، فكان الجانب الذي يطل

على ميدان السراي اليوم يبلغ طولـه ١٦٠ خطوة ، اما الجـانب الـذي يشرف علىّ سوق المشيـر اليوم فيبلغ مائتي خطـوة وكان علـو اسوار القصر خمس قصبات اي ١٢ مترا تقـريبا ويحيط بها خندق عـرضه ٤٤ خطـوة وعمقه قصبتـان » وقـد كان في الامكان ان نحصل على معلومات اوفى عـن حـالـة القلعـة في الداخـل لولا وجـود ذلك السبب الذي قام حائـلا دون البعثة ودون اتمـام القصـد .

ومهما يكن من امـر هـذا التقرير فانه مـع ذلك لا يجب ان نغالي كثيرا في اهميتـه ، ويستحسن الا نسلـم اعتباطـا بالمعلومات الواردة فيه ، اذ يجـوز جـدا ان يكون قـد كتب بقصد التضليل ، ذلك ان الوفـد الذي وضع التقريـر قـد ارسـل ـ كما اسلفنا الذكـر ـ من قبل فرسان مالطة لمعاينة الـوضع الذي كانت عليه مدينة طرابلس ، وذلك قبل ان يقوموا بالمرابطة فيها ، وبما ان المـدينة قـد اقتطعت لهم من قبـل الامبراطور شارل الخامس ولم تكـن لهـم رغبـة صادقة في امتلاكهـا لذلك فقـد يـكون هـذا احـد العـوامـل الـتي تـدفعهم على نقلهم صورة مشوهة عن احـوال القلعـة وبقيـة التحصينـات الأخـرى كمحاولة خبيثـة لتكبير العـبء الذي القى على كاهلهم ، ومـن ثـم سيكون من السهـل عليهم استدرار عطفـه على موقفهم العسكري العاجـز حيال السيطرة على الموقف في المدينة ، ذلك الموقف الذي سبـق لهم ان اعلنـوه صراحـة في المفاوضات الخـاصة بينهم وبين الامبراطور السالف الذكـر .

من الثابت ان القلعـة كانت تتاثـر بتقلبات الفـن المعمـاري الاسلامـي ، فقـد خضع هـذا الفـن في شمـال افريقيـة الى عوامـل التغيير من حين الى حيـن ، وهـذا ما يلاحظه المرء في تبـدل تلك السمات التي تميـز بها الفـن الاسلامي المغـربي عموما ، وقد انعكس هذا بوضوح في طـرائقهم في البنـاء والزخرفـة وعمـل الأقـواس والقبـاب والصوامع والأربطـة والاسوار والمدن والتي كان يشوبها الاختـلاف بين تلك الدويلات التي تعاقبت على حكم المغرب ، على انه يكاد يكون من الصعوبة بمكان ان نتتبـع اثر ذلـك التغييـر الـذي طـرا على هيئـة القلعـة ، وان كنا لا نشك في وقوعـه ، فان معالمها الحاضرة لا تكشف عنه بسهولـة وان ما يظهـر منه بوضوح هـو مما ينتمي الى المعمار الاسلامي التركي المتميـز بخصائصه المعروفـة للـدارسيـن .

وقد ازداد حجم تلك المعلومات التي توافرت عن القلعة في القرن الثامن عشر عنه في اي وقت آخر ، وربما يعود هذا بشكل او بآخر الى نشاط بعوث الكشوف الأوروبية وقيام نشاط آخر في مجال الديبلوماسية حيث اهتمت اكثر الدول الاوروبية ذات المصالح البحرية بانشاء علاقات مع الحكومة التركية والقرهمانلية ، وكان لازدياد هذا النشاط من الجانبين اثره الواضح على زيادة حجم المعلومات التي دونت في تلك التقارير وخاصة ما اهتم منها بدراسة النواحي العمرانية وربط ذلك بسياسة الولاة .

ولما كانت تلك الفترة التي استولى فيها احمد باشا القرهمانلي قد تميزت بشيء من التحدي الذي واجه حكمه سواء من داخل البلاد او خارجها ، فقد راينا كيف اتجهت نيته الى تقوية اوضاعه العسكرية في المدينة « لتكون في حالة دفاع ضد اي هجوم عليها من البحر وضربها بالقنابل او انزال الجنود اليها وبدا بتجديد اسوارها وتقويتها » . كما اجريت في عهده ايضا عدة اصلاحات في اماكن متعددة من القلعة التي زادت – كما يبدو – اهميتها واصبحت المعقل لجنوده وديوان حكومته ومخازن للذخيرة ومكان للتموين « فأضاف اليها البيوت والمقاصير الأنيقة وجددها وهي منها وقد كانت قبله خرابا » . على ان ذلك الحزم الذي واجه به احمد باشا القره مانلي مسؤولياته تجاه اعداد المدينة لتكون قوية وصامدة امام اي اعتداء يوجه اليها – لم تكن تلك المسؤوليات لتمارس من قبل البعض من احفاده بنفس الحزم والعزم ، فهناك عدة تقارير مما كتبت في هذه الفترة من تاريخ المدينة تشير الى الاهمال الشديد الذى لحق القلعة بسبب انصراف بعضهم « اي الولاة » الى اهتماماتهم الشخصية او انشغالهم بهموم الحكم في عهد كثرت فيه القلاقل وزادت فيه الفتن .

وهاكم ما كتبه احد اعضاء القنصلية الفرنسية بطرابلس حوالي عام ١٧٧٦ م ، وبالضبط في عهد علي باشا القرهمانلي (١) يشرح فيه احوال المدينة عامة ، والقلعة خاصة ، والتقرير بعد ذلك كاف لتصوير الوضع السيىء الذي كانت عليه المدينة في عهد تدهورت فيه جهود الاصلاح واصيبت بنكسة شديدة . لنستمع اليه يقول :

« ان الباشا (ويقصد علي باشا القرهمانلي) لا يحكم الا رعايا متمردين

---

(١) علي باشا الاول (1754 – 1793) م .

ومناطق جرداء واكداسا من الأطلال والخرائب وان المدينة التي يقيم فيها ليست سوى الخراب والدمار وان قصره ينهار من جميع جوانبه ، اما أسوار المدينة بسبب تهدمها في كثير من اجزائها تجعل ابواب المدينة عديمة الجدوى ولا قيمة لها » .

غير أن العناية الحازمة قد عادت الى المدينة مع بداية حكم يوسف باشا القرهمانلي(١)حيث استطاع ان يعيد الى الاذهان المآثر التي قام بها جده الاول مؤسس الأسرة القره مانلية ، وربما جاء هذا الحزم لكونه قد واجه هو ايضا نفس التحديات التي واجهها جده الاول عندما اطلق سفنه في البحر لمهاجمة السفن الاجنبية ، وكان عليه ان يتلقى بين الفينة والفينة الضربات المضادة . وكان من الطبيعي ان يتجه هو ايضا الى تقوية وضعه العسكري داخل المدينة ، وذلك من اجل الصمود امام تحديات الدول البحرية التي يتظاهر اسطولها قرب المدينة واحيانا يقوم بتوجيه الضربات الانتقامية اليها ، وقد ترك ذلك الاهتمام منه اثرا ملحوظا على زيادة حجم الضمانات العسكرية ، كما شمل ذلك الأثر القلعة، وبدا كانها تمر بأزهى عهودها .

---

(١) يوسف باشا (1794 ــ 1832) م

مدينة طرابلس بين عهدين

(١١٣٤ - ١١٤٦ م)

من الواضح ان العـرب - كما كانوا فعـلا في بعض فترات حكمهم - لـم تتأت لهم القـوة السياسية والعسكرية للصمود في مواجهة المطامع الاوروبية التي كانت تتربص بهم في شمـال افريقية ، كما هـو الحـال في المشـرق ، فعند مـا اصبح الأوروبيون قـوة عسكرية ناميـة في نواح كثيرة من أوروبا ، قـامت محاولات كثيرة لزحزحـة النفـوذ العربي من صقليـة « سيشيليـا » كما فعلت الشيء نفسه بالنسبة للنفوذ العـربي في الأندلس بعـد ذلك .

وبما اننـا قد عقدنـا هذا الفصل على دراسـة الأوضاع العـامـة بمدينـة طـرابلس في فتـرة الحكـم النورمانـدي فيها فانه سيكون من الأهمية بمكان ان نقف على بدايـة تكويـن النورمانديين كقـوة عسكرية وسياسيـة في جنوب اوروبا . فاقدم المعلومات لدينا عن النورمانديين هـي ما يتصـل بهجرتهم الى فـرنسا عـام ٩١١ م فقـد تمكنوا في عهـد شارل البسيط مـن فـرض انفسهم على الحكومة الفرنسية واستطاعـوا « بمرور الزمـن تكويـن فرق عسكرية يتاجرون بفروسيتهم في المجتمع الاوروبي الاقطاعي » (١) ومن ثم « فقـد تطورت فعاليات النورمانديـيـن العسكـريـة » (٢) وبـدأوا يشنـون الهجمـات العسكريـة على مختلف البقـاع مستهدفين بذلك تـوسيع نفـوذهم العسكري والسياسي في مناطق كثيرة مجاورة الأمـر الذي استفـز حفيظة البابا « ليو التاسع » مما جعلـه يستنجد بالبيزنطيين لوضع حد لتوسعـاتهم العسكريـة ، وقد ادى ذلك الى خوض الأطراف المعنية عـدة معارك

---

(١) عبد القادر احمد يوسف ، العصور الوسطى الاوروبية ، ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصـدر ص ٢٨٢ .

مسلحــة انتصر فيها النورمانديون على خصومهـم في معركـة « سيفيتان » الفاصلـة عـام ١٠٥٥ م ووقــع البابا نفسه أسيرا في قبضة ايديهم ، ولكــن هزيمــة « البابـا » تحولت الى نصر رائــع بعـد ان اعلن النورمانديون بأنهم حمـاة البابـاويــة وتمكنوا بذلك من تفادي غضب البابا ، الذي كافأهم علــى مـودتهم تلك بأن اعلــن بأن صقليــة ستكون اقطاعا لهم فيما لو استخلصوها من أيــدي المسلمين . وفي سنة ٤٨٤ هـ تـم سقوط صقلية في يــد النورمانديين وزالت منها السيــادة للعــرب حيث انشأوا فيها « دولة قوية لها دورها الفعــال في سماء السياسـة الاوروبيــة اذ كونت تلك الدولــة مــوقعا استراتيجيا واقتصاديــا هامــا في تلك الجهـات من البحـر المتوسط » (٣) .

ومن ثــم بــدأ النورمان في التطلع لغـزو افـريقية (٤) ، وقـد اختــاروا الــوقت المناسب لتنفيــذ تطلعاتهم تلك عند مـا جـاءوا لاحتلالهـا في الــوقت الذي كانت تعــاني من جــراء « حملـة التخريب التي قـام بهـا العربـان في ليبيـا ، كما كــان الحــال في افريقيــة كلها » فكانت البلاد في وضع اقتصادي ضعيف لمـا الحقته حمــلات التخـريب من خـراب بموارد البلاد وكان رد الفعل سيئــا على الناحيــة العسكرية فقـد « شلت عمـل المحـارس التـي انشاهـا بنو الاغلب وحافظ عليها العبيديون والصنهاجيون » (٥) من بعدهم زد على ذلك كله ان الوالي فيها ـ ابو يحيى بن مطروح ـ لم يكن واعيا بالقـدر الكــافي للأخطـار المحدقـة به عند ما أعلن استقلاله بمدينـة طرابلس عن بني زيــري ، وسط تلك الملمـات التي داهمت البلاد وقتئـذ فضلا عن اجتياح تلك المجـاعـة التي اضفت على الــوضع صفـة البـؤس والفاقـة ، ففي هـذا الـوقت بــادر النورمانديون بالقيــام بهجومهم المسلح على مدينة طـرابلس واستطاعـوا ان يعسكروا بجيــوشهم حولها من ثلاث جهـات قصد تضييق الخنــاق عليها ، غير أن النورمانديين قد لاحظوا في اليوم الثالث من حصارهم ان الاسوار قــد خلت من المـدافعين عنها كما سمعوا بوقوع معارك داخل المـدينة الشيء الــذي

---

(٣) عبد القادر احمد يوسف (العصور الوسطى) ص ٢٨٤ .

(٤) كانت افريقية تعنى عند العرب القطر التونسي مع الجزء الغربي من ليبيا والجزء الشرقي من الجزائــر .

(٥) د. احسان عباس ، تاريخ ليبيا ، ص ١٧٣ .

كان يؤكـد لهم وقوع ثـورة اهليـة بين المسلمين من سكان المـدينـة ، وهـذا ما وقـع فعـلا على اثـر تجـدد الخلاف بشأن سيادة بني مطروح الذين ابعدوا عن سدة الحكـم قبل مجيء الحملـة النورماندية بقليـل حيث اغتنـم الفريـق المشايـع لهم فرصة الحصار المشدد على المدينة فاستقدمـوا بنـي مطـروح وادخلوهم البلـد ، ولما سمع خصومهم بالواقعـة تخلـوا عـن القتـال الأمـر الذي اتـاح الفرصة للغـزاة النورمانديين لكي يستولوا علـى المـدينـة ، وان يخضعوهـا لحمايتهم العسكريـة بعـد ذلك .

ولما استتب الامـر للنورمانديين حاولوا من جهتهم ان يعيدوا الأمن والنظام الى المـدينة وبادروا بايجـاد نوع من التعايش السلمي عند ما اتخـذوا مـن جـانبهم خطـة لعـودة المهاجـرين اليها كما سمحوا في نفس الـوقت بدخول أفـواج الوافـدين من صقليـة ، ولا بـد أن المقصود بهؤلاء المهاجـرين الوافدين العـرب الذين تبقوا في الجزيـرة بعـد أن زال حكم العـرب عنهـا ، سعيـا منهم لاقامـة نـوع من التفاهـم ، وقـد كـان هـذا التفـاهـم هـو لمصلحـة النورمانديين اكثـر منه لمصلحـة العـرب ، فقـد اقامـوا نظامـا من الحكـم يشترك فيه المسلمون والنورمانديون حيث كانت هذه الحكومة المشتركة تتلقـى حمايـة بواسطة جنـد من كلا الطرفين معـا ، امـا فيما يتعلـق بالشـؤون الـدينية الخـاصة بالمسلمين فاتفق الطرفان على ان يختص بها المسلمون دون غيـرهـم .

وقـد حاول النورمانديون اثناء فتـرة سيطرتهم على طرابلس ان يقومـوا ببعض الاصلاحات على تحصينات المدينة ومرافقها العامة ، وقد استغرق ذلـك منهم ستة اشهر ، ولا نعتقد بأنهم استطاعوا ان يحققوا في هـذا السبيـل اصلاحـات ذات شأن كبير كتلك التي قـام بها الاسبان وفرسان مالطة مـن بعـدهم ، وعلى ايـة حـال فقـد قامـوا بالاصلاحات التي بـدت لهم ضرورية لتأمين وضع عسكري قوي لهم داخل المدينة المحيطـة المحـاصرة مـن قبـل المقاومـة العـربيـة .

وقـد بـدا أن الحيـاة في المـدينة تسترجع انفاسها الطبيعية ، بـل للمرء ان يقول بأن هذا المجتمع الجديد يتألف من عناصر عدة بعضهـا وافد عليها

من الخارج وبعضها كان موجودا في الأساس قد أوجد نوعا من الاحتكاك الحضاري الذي اثرى الحياة في اطارها العام وبالخصوص فيما يتعلق بنشاط التجارة البحرية والازدهار الاقتصادي بصورة عامة ، غير ان اهل طرابلس الذين خسروا معركة النورمانديين لا يمكنهم ان يتحملوا تبعات الاحتلال الى ما لا نهاية ، ولا يمكنهم ان يقبلوا بالسيطرة الاجنبية الى الأبد لذلك فقد اخفوا حقدهم الدفين تجاه الغزاة الذين اراقوا بالامس القريب دماء زكية ، وارتكبوا من الفظائع ما لا تزال صورتها عالقة بالاذهان ، الى ان يحين الوقت المناسب ليتفجر ذلك الحقد المقدس في صدورهم ثورة عارمة على الغزاة المحتلين . واذا كانت الأسباب الحقيقية التي عجلت باشعال نار الثورة ، غير محددة الا ان للمرء ان يعتقد بأن اهل طرابلس قد اهينوا في بعض مقدساتهم على نحو لا يمكن الصبر عليه ، واغلب الظن ان الاهانة كانت موجهة الى دينهم فبعض المؤرخين يرى ان النورمانديين لما راوا تغلب الموحدين على اقطار المغرب طلبوا الى ائمة المساجد في طرابلس ان يقوموا على المنابر فيذموا الموحدين للناس ويستثيروا كراهيتهم لهم — على طريقة فرق تسد — وبما ان الاهلين قد رأوا في هذا مخالفة صريحة لشروط الاتفاق المبرم بينهما والذي ينص على الا يكلف المسلمون بشيء يمس دينهم اذ ان « ذم الموحدين وهم اهل دين امر يخالف الدين » (٦) ، لهذا فقد رفض اهل طرابلس الاذعان لرغبة النورمانديين ، وانتهت المفاوضات بين الطرفين الى طريق مسدود .

ومع ذلك فللمرء ان يتصور ايضا ان الثورة لا بد انها كانت تستند الى اسباب اخرى اهمها تطالعات الشعب في طرابلس الى الحرية ، ورغبة الاهالي في التخلص من التبعية للحكم الاجنبي الدخيل ودفع الجزية المفروضة عليهم والتي كانت تثقل كاهلهم ، كل هذا قد جعل الطرابلسيين لا يرون خلاصهم الا « بالثورة » على الغزاة وبطريقة درامية سارع الاهالي — ولا بد ان يكون هذا في تدبير مجلس شورتهم — في نصب المتاريس وسد الطرقات بعوارض من الأخشاب اثناء الليل ثم تنادوا

---

(٦) د. احسان عباس (تاريخ ليبيا) ، ص ١٧٨

بالثــورة ، وهنا فقط وجـدت الحاميــة النورمانــدية نفسها في كمين ليس منه فكاكــا ، فلم تجـدهم خيولهم ، ولا استطاعـوا ان يجدوا لأنفسهم سبيــلا للدفــاع عن كيانهم او الوقـوف في وجـه الثـورة أو الافلات من حــد السيف الذي أعمـل في رقابهم حيث ذبحـوا واحـرقت مساكنهم وطردوا مــن البــلاد شــر طــردة .

طرابلس فى العهـد العثمانى الأول

(١٥٥١ - ١٧١١)

عند ما كانت مدينة طرابلس ترزح تحت حكم فرسان مالطة قـامت محاولات جـادة من قبـل الاهلين بتاجـوراء للتخلص من سيطرتهم وتحرير المدينة مـن قبضـة أيـديهم . ولكن العـدو الذي كان يتلقى مساعدات كثيرة لتـرسيخ قـدمـه هنا من قبـل القـوى المسيحية في اوروبـا ظـل صامـدا امـام تلك المحـاولات التي قـام بها الاهلون بصورة منفردة ، ومن هنـا اتجهت النيـة وقتئـذ للاستعـانـة بالعثمانيين لانقـاذ المـدينة وتحريرها من نيـر الاحتلال ، وفعـلا تـم في عـام ٩٢٦ هـ ١٥١٩ م ارسال بعثـة من اهالي تاجوراء قصـد دراسـة المـوقف وطلب المساعـدة ، ويبـدو أن تلك البعثـة لم تجـد مطالبها الاسـاسية هناك اهتماما جادا من قبل السلطان ، وان حاول هذا الاخـير ان يبدي شيئا من الاهتمام عندما اسند بحث هذه القضية الى ـ مراد آغـا ـ احـد خـدام قصره ، وكان يجيـد التكلـم باللغـة العـربية ، ويبدو أن الأخير قـد لعب دورا محسوسا في اقنـاع السلطان بمساعدة الطرابلسيين والخـروج بهم من محنتهم ، ولكن حجـم تلك المساعـدات التي وافق عليها السلطـان في النهـايـة لم تكن لتتلاءم مع حجـم تلك المعونـة العسكريـة التي يتلقاهـا فـرسان مالطـة من مختلف المصادر المسيحية المتالبـة على الاسلام في أوروبـا.

غيـر أن مـراد آغـا الذي كلف بمهمـة تحريـر طـرابلس من قبل السلطان قد أخذ يمـارس حربا تشبـه حرب العصـابات في بدايـة الامر ، وذلك بواسطة ما تاتى لـه من القـوة لخـوض المعـركة مع الخصم الرابض خلـف أسوار المـدينة ، ولا بـد ان الطـرابلسيين كانوا يشكلون الطلائـع الاولـى لخـوض هـذه الحـرب التي فـرضها عليهم العـدو المحتـل لبلادهم . ويبدو أن هـذه المرحلـة من مراحـل حـرب التحريـر كان لا بـد منها قبـل دخـول حلبـة الصراع الحقيقيـة مع فرسان مالطـة ، فقد عمـل مـراد آغـا بهمة الرجل

المحارب في تهيئة الاهلين ليوم التحرير ، واخذ بمساعدتهم يبني الحصون ، ويتمركز في عدة نقاط في مواجهة المدينة ، غير أن تلك الاستعدادات لم تكن بقادرة على مجابهة حقيقية مع العدو ، ومن هنا فقد استمر الوضع على حالته الاولى دون احراز اي تغيير يذكر في الموقف العسكري . وقد داب (مراد آغا) يعمل على الجبهة السياسية ، ويبدي المحاولات تلو المحاولات لاقناع ـ السلطان ـ باسطانبول بزيادة حجم الامدادات العسكرية وادخال عنصر جديد في المعركة بتوظيف جزء من القوة البحرية لمصلحة حرب التحرير في طرابلس ، غير ان الاسطول العثماني في البحر الابيض المتوسط كان مشغولا بمعركة التحرير في المهدية وجزيرة جربة ، ولعل انتهاء المعركة بالنصر لمصلحة الاتراك شجعهم على الالتفات الى طرابلس للمساهمة في معركة التحرير التي بدأها الطرابلسيون قبل ذلك بقليل .

وبعد اقل من عام من معارك المهدية وجربة بتونس كانت تلك القوة المظفرة بقيادة الربان درغوث باشا قد التفت حول مدينة طرابلس وبدأت في فرض حصار عليها من البر والبحر ، وبرزت في هذه الفترة اهمية تلك الاستعدادات التي قام بها الطرابلسيون بقيادة (مراد آغا) في هذه الحرب التحريرية ، بل لا بد ان تلك الاستعدادات قد لعبت دورا رئيسيا في تلك الحرب ، ولم يستطع فرسان مالطة الصمود طويلا في مواجهة ذلك الحصار الذي فرض عليهم من البر والبحر فاستسلموا وتحررت بذلك المدينة من نفوذهم وسيطرتهم اللذين داما قرابة العشرين عاما ، ومن ثم فقد دخلت طرابلس بشكل رسمي في ظل الحكم التركي حيث أصبحت تدار من قبل وال يعين بفرمان سلطاني توكل اليه مهمة ادارة البلاد بواسطة بعض الموظفين ، وتؤمن له اسطانبول اعدادا من الجنود لمساعدته في اقرار الأمن وجباية الضرائب .

هذه مقدمة لا بد منها لمعرفة الظروف التي نشأت فيها اولى اللمسات العمرانية ـ ذات القسمات التركية ـ على صفحة الحياة الليبية . فبعد أن تم جلاء فرسان مالطة عن البلاد كان (مراد آغا) قد اخذ بزمام المبادرة في وضع اللمسات العمرانية الاولى في تاجوراء عند ما اسس فيها

اثناء مرابطته بها حصنا صغيرا هو بمثابة مركز امامي متقدم فيما بينها وبين طرابلس . كما حفر بئرا للسابلة على الطريق المؤدية الى طرابلس ، غير ان اهم البصمات للفن العثماني الاسلامي قد وضعت بالجامع الذي يحمل اسمه بتاجوراء ، وكانت هذه الجهود العمرانية التي قامت في عهده ذات اهمية خاصة باعتبارها البداية الاولى للدخول في نقلة جديدة من الحياة العمرانية التي تعمق مجراها بقدر ما سمحت به ظروف المرحلة الاولى للحكم العثماني في ليبيا (١٥٢١ ـ ١٧١١) .

وعند ما تولى درغوت باشا (٩٦٤ ـ ٩٧٣ هـ) . حكم ايالة طرابلس بدات الاخيرة تشهد المظاهر الحقيقية للتعمير اذ نشطت الجهود في هذه المرحلة للاهتمام بنواحي التحصين ، وبناء الاستحكامات ، واصلاح الميناء وجعله في غاية المتانة ، كما توافرت بعض جهوده على ناحية التسوير والتحصين ، ويبدو انه قد اضاف الشيء الكثير على معالمه الاولى مما جعل البعض من المؤرخين يشيرون الى جهوده هنا على اساس انها من أهم اصلاحاته ، وفضلا عما تم في عهده من المشاريع ـ سواء تلك التي انجزت في مجال التحصين أو تلك التي تمت في مجالات أخرى تتصل بتجميل مدينة طرابلس ـ فقد قام الى جانب ذلك ببناء الجامع الذي يحمل اسمه حتى الآن ، وقد اشرنا اليه في المكان المناسب في هذا الكتاب .

ومن الواضح ان العهد العثماني الذي بدأ بداية حسنة من حيث انه قد شجع على اعمال الاصلاح والتعمير ، الا ان تلك البداية لم يكتب لها الاستمرار ، فقد كانت البلاد تصاب بنكسات من جراء وضعها تحت ادارة ولاة ضعاف لا يابهون بشيء اكثر من مطالبتهم للاهلين ومختلف فئات الشعب بالمزيد من الضرائب وارهاقهم بالكثير من الواجبات ، وليس هنالك في المقابل ما يمكن ان نسميه بالرعاية الحكومية او بسط يد العناية على عامة الناس ، ففي الكثير من الاحوال كان الولاة يلجاون الى العنف في اقرار مطالبهم الجائرة ، وعند ما تقوم بين الاهلين صيحات المعارضة لما يلقى على كاهلهم من الوان الضرائب يسلطون عليهم الجنود حيث يطلقون ايديهم في ارزاقهم فيسرقون انعامهم ويستولون على اموالهم بالقوة وبلا وجه حق .

وقـد ظـل العثمانيـون ـ وهـذا حالهم في كل مكان احلوا فيه أنفسهم ـ اقليـة « مسيطرة في مملكتهم الواسعـة دون ان يقوموا باي محاولة لاصـلاح الاراضي في البـلاد العـربية » (١) ، فقد كانت طريقتهم هي ان يلجأوا الـى أقـرب الوسائـل للوصول الى غاياتهم في جمع الضرائب ، وقد كان ضعـف الادارة في بـلاد مترامية الاطراف تتخللها صحراوات شاسعة واسعـة أمـرا يتطلب جهودا كبيرة يمتص الشيء الكثيـر من الطاقات التي يمكن استغلالهـا في الجـانب الآخـر فيما ينفع البلـد ، زد على هذا ان هنـاك على التحقيـق تبديدا للاموال المحصلة من ارزاق الشعب اذ كان الحكام المعينون في خـدمـة « الوية طرابلس يسببون خسارة للخزينة باستيلائهم على واردات المناطق بالاضافـة لمـرتباتهم » (٢) ، ويعني هذا أنهم ـ اي هؤلاء الحكام ـ في الوقت الذي تشكل فيه رواتبهم عبئا ثقيلا على موارد الولاية يزيدون الامـر سوءا عند ما يسمحون لأنفسهم باقتسام ما تبقى من فائض الدخـل ، وكانت النتيجة الطبيعيـة لمثـل هذا التصرف ان تتبـدد الاموال العامـة بين جيوب الـولاة وجنودهم الانكشاريين ، وبالتالي تتردى همـة التعمير بحيث لم يتحقق منها الا الشيء القليـل .

ويتضح من هذا ان البـلاد كانت تعيش تحت ظروف ادارية سيئـة فـي الغـالب بحيث لا تكـاد تسمح بظهـور فـرص حقيقيـة للتعمير او الاصلاح . ولكـن مع ذلك فقد كانت همـة بعض الافـراد من الولاة تسمح بقيام انجازات ذات طابع شخصي ينم عن ميل لعمل الخير ويتسم بالخلق القويم وقد تركزت هذه الانجازات في بناء المرافق العامة وتشييد دور العبـادة ، وكـانت هـذه ـ على مر السنين ـ قد افلحت في تعميق ذلك التيار العمراني الذي نما مع العهد العثماني الاول وبدأ يعلن على نفسه بوضوح في حاضرة طرابلس على وجـه الخصـوص .

ومن الانصاف ان نذكـر هنا بـأن العثمانيين قد أحـدثوا بمـرور الـوقت لمسات عمرانيـة ذات سمـات خـاصة في حـاضرة طرابلس ، وقد كانت هذه

(١) تاريخ العرب ج ٢ ص ٨٤٣ د. فيليب حتى ـ د. ادوارد جورجي ـ د. جبرائيل جبور
(٢) عزيز سامح ، الاتراك العثمانيون في شمال افريقية ، ترجمة . ع . ادهم .

اللمسات من الاثـر بحيث ساد طابعها العـام كل ما عـداهـا ، واذا كـانت آثـارهم العمرانيـة هي اقـل مما كان للمـرء ان يتوقـع خصوصا اذا اخـذنا في اعتبـارنا القـرون الطويلـة التي بقيت فيها ليبيـا تحت حكم الاتـراك ـ الا اننا لا يجب ان نقلل من اهميـة ما انجـزوه من اعمـال تتصـل بالنشـاط العمـراني في مدينـة طـرابلس ، بـل نستطيع القـول بأنه لا يمكن للمـرء ان يتصور بأن الامور ستكون افضل مما تحقق فعلا في عهدهم .

وقد يبـدو انـه من الاجـدر بنا الوقوف على ما تـم في العهـد القره مانلي (١٧١١ ـ ١٨٣٥) من نشاط يتصل بالحياة العمرانيـة في عهـدهم اسـوة بما فعلنـا في العهود الاخـرى التي مـرت بمدينـة طرابلس لـولا اننا نـرى بأن العهـد القـره مانلي لم يكن فـي الحقيقـة الا امتـداد لنمطيـة الحيـاة العمرانيـة التي الفناها في العهد العثماني الاول ، ومع ذلك فـأهم اعمـالهم قـد تعـرضنا اليها في الاقسام السالفة من هـذا الكتـاب خصوصا تلك التي عقدناها على دراسة القلعة والسور والمساجد ، ونظنها كافية لاعطاء صورة تبـرز معطيـاتهم بشكـل اكثـر تفصيـلا .

الحياة الثقافية فى طرابلس

يكاد يكون من الصعب الحصول على معلومات كاملة ودقيقة حول الحياة الثقافية في ليبيا .. وان الشيء المتوافر منها اليوم ينحصر ـ فقط ـ في القليل من التكهنات والاحتمالات القائمة على اساس مما زودتنا به تلك المخطوطات والوثائق القليلة التي عثر عليها في شمال افريقية ، ومهما يكن من امر فان الشيء الذي لا يتطرق اليه الشك هو ان منطقة شمال افريقية ـ على وجه العموم ـ منطقة كان لها دور كبير في الحضارة القديمة ، ودورها يشبه الى حد بعيد ذلك الدور الذي قامت به الاراضي الواقعة بين النهرين ـ ونعني بذلك نهر النيل والفرات ، فقد توارد على شمال أفريقية غزاة كثيرون أتوا بثقافتهم وبذروا بذورها في المنطقة ، وكيفما كان الأثر وكان التاثير الذي حدث من جراء وفود تلك الثقافات مع جحافل الغزاة فانه كان على وجه التحقيق لتلك الثقافة الوطنية وجود لا ينكر ، اذ لا نتصور سكان ـ ليبيا ـ والذين كانوا يعيشون في مناطق مترامية من هذه البلاد كما بلا معنى ، فلا بد ان يكون لليبيين معطياتهم الحضارية سواء أكانت هذه المعطيات قد نمت بمعزل عن الثقافات الوافدة أم تداخلت مع غيرها من الثقافات والفت معها ثقافة واحدة والذي يؤكد ذلك ما عرف عن الليبيين دائما من احتفاظهم باشياء تميزهم ، سواء في اللغة او العقيدة ، وما شابه ذلك .

غير أن ما كتب حول الثقافة الليبية القديمة لا يستكشف الا القليل من معالمها فهي كتابات متفرقة وغارقة في عمومياتها ، ولا تقودنا في كثير منها الى تعريفات حقيقية لجوانبها ، ويبدو لنا ان الكفاءة العربية لا تزال عاجزة عن ادراك معلوماتها مما يتواجد في المنطقة من كشوفات اثرية يمكن ان تكون اساسا يقودنا الى فيض من الحقائق ، وربما كنا بهذه الطريقة نستطيع ان نسد البعض من ذلك الفراغ الذي ترك شاغرا بضياع المكتبات البونية التي

احرقها الرومان في خلال حربهم الطويلة مع الفينيقيين . وقد نتغلب يوما على هذا القصور فينا فيهب المؤرخ العربي ليستنطق المخلفات التاريخية في المنطقة ، فيتوصل بذلك الى استكشافات حيوية يعيد للمنطقة وجهها الغائب في زحمة القرون .

وبالرغم من النقص الذي نلاحظه اليوم في مجال النشاط الانساني الذي قام به الليبيون اجدادنا القدامى ، فقد وصلتنا معلومات عن نشاطهم هذا ، وهو يصلح ان يكون اساسا يقيم عليه الدارسون الكثير من الدراسات المتعلقة بدور الليبيين في حضارة العالم القديم ، فقد ساهم العنصر الليبي ـ أقدم العناصر التي عرفت بانتمائها للمنطقة منذ زمن سحيق ـ في الحياة الثقافية بما انشأ من مؤسسات قومية ـ ومن ضمنها الادب ـ .

وقد استبقى لنا التاريخ من هذا العصر بعض المؤلفات القليلة المكتوبة باللغة اليونانية ، ولا بد أن يكون ما وصل الى ايدينا هو قدر قليل جدا من فيض ذلك النشاط الانساني الذي قام به الليبيون القدامى .

وقبل أن تزدهر الاسكندرية على يد البطالمة كانت « قورينا » الواقعة في الشق الشرقي من ليبيا من اكبر المراكز الثقافية التي عرفها التاريخ في المنطقة ، فقد كانت « تقوم » بدورها الفعال في اشاعة الثقافة حيث نشأ في ظلها اعلام كافلوطين ، وكاليماخوس ، وابرتوشنيس وابوليوس ، وغيرهم ممن طاولوهم المجد والشهرة ، وعلى الرغم من عظمة المكانة التي تتمتع بها قورينا في العالم القديم الا اننا نشك في ان يكون لهذه المدينة أثر ثقافي مباشر على مقاطعة طرابلس الرومانية .

ونحن نميل الى الراي القائل بأن « الروابط الثقافية في هذه المرحلة ـ بين أهل طرابلس والغرب اكثر منها بالشرق ، وذلك لأن مراكز الاستيطان الكبيرة في المنطقة الساحلية قد انعزلت عن برقة بواسطة شواطىء خليج سدرة المقفرة » (١) . وعلى العكس من ذلك ، فان تأثير « قورينا » قد امتد في اتجاه الشرق . فمن الثابت أن « نمو مدينة

---

(١) د. ا. ل هايتز (آثار طرابلس) الطبعة الانجليزية ص ١٦

الاسكندرية ، وازدهارها ، قد قام على الاستفادة من المدن الليبيــة وعلى راسها مدينة قورينا . ان ملوك البطالمة الذين ورثوا من امبراطورية الاسكندر في مصر بــذلوا جهودهم المستمـرة للاستفادة من قورينــا واهلها اذ نـزحت جماعـات كبيــرة الى الاسكندريــة المـدينة الجديــدة ، وقد عـرف ملوك البطالمـة كيف يستفيــدون من الهجـرات لتعميـر مدينتهم وتطويـرهــا حتـى اذا بـدأوا يؤسسون جامعتهم في الاسكندريـة استعانـوا بعـدد من المفكرين الموجـودين في (قورينــا) في ذلك الـوقت » (٢) . وهكذا فان اختلاف الظروف السياسية ـ فضلا عن المـواقع الطبيعيـة ـ قد حـال دون قيـام حياة ثقافية مشتركـة بيــن المـدينتين ـ ونعني بذلك مـدينتي قورينــا وطـرابلس (أويــا) .

ومهما يكــن من امـر فان مدينــة طـرابلس كان لها مكتسباتها الثقافيــة ـ شانها في ذلك شان بقيــة المـدن الرومـانية المعـاصرة لهـا فقد كان طـابع الحيــاة العامــة يذكي نفسه لـدى الفئــات الوطنيــة ، فاستفادت من احتكاكها بها ولا بــد ان تلك الاستفادة كانت تتـم بقدر ما كانت تتيحه لهم ظـروف الاخـذ والعطـاء ، ولا بـد ان مثل هذه الظروف كانت ميسرة في بعض الاحيان ولو لـم تكن كذلك لمـا استطاعت بعض العناصر الوطنية ان تتهيـأ ثقـافيـا على ذلك النحـو الذي يجعلهـم يساهمون في بنـاء الحيــاة السياسيــة ، واذا كنــا لا نـزال نفتقـر الى الكثيـر من المعلومات التي تساعـدنا على تحسس المـواضعات الثقافيــة العامــة في ذلك الـوقت خـاصة فيما يتعلق بأساليب نشرهــا ، ونعني بذلك في المقـام الاول طرائق التعليم ومراحلــه فان مخلفات المـدن الرومانيــة تؤكـد لكل ذي عيــن تــرى ان سكانها كانــوا يتمتعـون بمستوى ثقــافي عــال يلائـم تلك الابهة والفخامــة والانــاقــة التي نجـدها متمثلــة في كــل شيء يمت الى الحيــاة العامــة بصلة ، ولا بــد ان مدينــة طـرابلس كان لها نصيبها الاوفـر من رفاهيــة تلك العصور ، وكانت الثقافة من ابرز مظاهرها العــامة .

واذا كانت ملامح الحيــاة الثقافيــة تغيب عن تصورنا من حيث التفــاصيل الدقيقة في العهد الروماني والبيزنطي في ليبيــا ، الا ان هذه الملامح تاخــذ

(٢) بعيو (بعض الملامح التاريخية) محاضرات ص ١٣ .

في البـروز شيئا فشيئا منذ مجيء العـرب الفاتحين اليها .. فقد اقترن مجيء العـرب اساسا بفكـرة التطلع الى غـزو القلوب والاذهـان ، ويتضـح ذلـك كحقيقـة عند مـا نـرى أن الفتح الاسلامي في شمـال أفـريقية قد اقتـرن بمبادرات جـادة لنشر الثقافـة الـدينية واللغويـة (٣) وكان ـ القـرآن ـ هـذا السفـر الخالـد اساس هذه الثقافـة فكان بمجـرد أن يستتـب الامـر للفاتحين حتى يباشر في نشر تعاليمه في اوساط الناس ، وهكذا بدات تلـك الثقافة الدينية مع مرور الزمن تأخذ في التنوع (ففي الفترة التي سبقت هجمة البدوية « هجمة بني هلال وسليم » كانت دور القـرآن ما تزال تعمـر المـدن والقـرى ، وكانت المـراكـز الكبرى مثل طـرابلس وبرقـة وجبـل نفـوسة ما تزال تحفـل بالحلقات العلميـة حول الشيـوخ) (٤) . وفي عهـد بني الأغلب كانت دور القـرآن التي يتلقى فيها الصبيان مبادىء القـراءة والكتابـة قـد تطـورت وتوسعت في مناهجها ـ وان ظـل القـرآن حسبما نعتقد أساس هذه المنـاهج وهو منهـا كقطب الـرحى حتى اصبحت تعرف فيمـا بعد بالرباطات و الرباط ــ واصبحت تتضمن معنى اشمل من تلك الكتاتيب ، فهي اقرب ما تكون الى الجامعات منها الى غيرها . وكان من اشهرها في هذا العهد بالرباط و الرباطات ـ واصبحت تتضمن معنى اشمل من تلك الكتـاتيب ، فهي بالاضافـة الى هـذا الربـاط رباطـات أخـرى عـديـدة على طـول الساحـل الليبـي ، وقـد أشرنـا اليها في مكانها المنـاسب من هـذا الكتاب ، ونعتقـد أن هـذه المرحلـة من حكم بني الأغلب كانت من المراحـل الحـاسمة التي تـم فيها وضع الأساسات الـراسخـة للثقافات العربيـة ، فـان تطـور التعليـم وخروجـه من دائـرة الكتـاب والجامع الى الربـاط لهـو دليل قـوي على تمكن المنطقـة من عروبـة ثقافتها ، وعلى هذا الاساس تطور التعليـم في ليبيـا ،

---

(٣) يقول أ . ف فونية في كتابه « ماضي شمال افريقية » ص ٩١ « ذكر القديس اغسطينوس ان اللغة اليونانية في عصره كانت منتشرة في الارياف . ولم يكن الفتح بعيدا عن تلك الفترة ، الامر الذي مكن اللغة العربية من الحلول محلها ، كما حلت الارامية محل الفينيقية في فينيقيا قبل ذلك بعدة قرون ، ومن السهل القول ان الليبيين اقبلوا على اللغة العربية نظرا لتشابهها مع اللغـة البونيـة » .

(٤) د. احسان عباس (تاريخ ليبيا) ص ٢١١ .

وقد ظل ـ الرباط ـ علامة مضيئة ونموذجا حيا ومثاليا في ترقية الثقافة ونشر اسبابها بين الناس في ذلك الوقت المبكر .

ومن المفيد ان نستعرض هنا اسماء بعض المدارس التي اشتهرت في مدينة طرابلس عبر العهود الاسلامية ، وتاتي في مقدمة هذه المدارس المدرسة « المستنصرية » ـ تاسست عام ٥٥٨ هـ ـ وكان بها نصيبا وافرا من الشهرة والذيوع ، وهذا ما نلمسه في احاديث كل الرحالة العرب الذين زاروا مدينة طرابلس ، واتوا على ذكرها بلهجة المعجب المفاخر .

وبالرغم من ان المدرسة المستنصرية قد وجدت في عهد بدأت فيه اشراقة الحضارة العربية في الخبوء والذبول ، الا أن هذه المدرسة ظلت مع ذلك تمثل تحديا صارخا لظروف العصر ومعطياته . ذلك العصر الذي بدأت فيه اوروبا الصليبية تسعى لتحقيق غاياتها في تفتيت القوى العربية .

ومن حسن الحظ ان الدين الاسلامي لا يسمح للمسلم بالتكاسل والتراخي في طلب العلم ، فهو يحثه دائما على ان يطلب العلم اين وجد « من المهد الى اللحد » كما نراه يفضل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون ، ومن هنا فقد ظل التعليم ـ بالرغم من كل النكسات التي اصيبت بها الحضارة العربية ـ دائما محميا ومرعيا بقدسية دينية ففي العهد العثماني الذي يعتبر من العهود التي خبا فيها العلم والتعليم والقى عليه ظل من النسيان والاهمال ـ نجد في هذا العهد ان الاهتمام بالعلم والتعليم يسلك طريقه الوعر ويتغلب في بعض الاحيان على المصاعب التي تواجهه ، فقد كان (المسلمون الخلص من عامة الشعب الليبي قد قصروا همهم على رصد الأوقاف العظيمة في سبيل الكتاتيب والزوايا والمدارس والجوامع فما من امير الا واسس جامعا والى جانبه مدرسة ودار كتب وحبس على ذلك الاحباس العظيمة التي تكفل حاجات البناية ومدرستها وطلبتها) وهكذا نجد التعليم يتقدم ويواصل ديمومته على يد العمل الخيري الشعبي عندما تتباطأ الهيئات التركية الحاكمة وتتقاعس

عن القيام بواجبها في نشره ، وبما ان هذا التقاعس كان سمة ذلك العصر ـ على وجه العموم ـ فقد كان التعليم الخيري هو الشيء البديل الذي كانت تعتمد عليه ليبيا في نشر التعليم واشاعة الثقافة بين فيئات المواطنين !

ولقد اسهم بعض الولاة والحكام الاتراك في مجال التعليم الخيري بطريقتهم الخاصة ، فقد كان الواحد منهم تتكدس في يده الاموال بما يفيض عن حاجاته (تلك الاموال التي لا يعدمون طريقهم اليها وهي في الغالب ما تكون قد نهبت من قوت الشعب الليبي ومن دمه) فقد كان الواحد منهم تظاهرا بالتقوى وتلويحا بالتوبة ينشىء الجامع ويقيم الى جانبه مدرسة لنشر العلم ويوقف عليها الاحباس والاوقاف وكيفما كانت الطريقة التي تم بها نشر العلم ، الا انها كانت ــ في ذلك العصر على الاقل ــ تساعد في رفع غشاوة الجهل عن الاذهان ، وفي الجانب الآخر كان هذا الاهتمام بانشاء المدارس والجوامع قد أوجد على مر العهد العثماني والقره مانلي بعد ذلك ـ العديد من المؤسسات العلمية ذات الطابع الاسلامي التركي ولا تزال مدرسة عثمان باشا ومدرسة الكاتب ومدرسة احمد باشا القره مانلي احسن الشواهد الحية على ذلك النمط الخيري من التعليم .

عـودة الاتــراك الى طرابلس

كان عـام ١٨٣٥ من الاعـوام الحـاسمة بالنسبة الى آل القـره مانلي .. الذين حكموا نيابـة طرابلس الغـرب لمدة تزيـد عن المـائة عـام .. ففـي هـذا العـام تـم خلـع « علـي الثـاني » آخـر أمير في العائلة القره مانلية .. من قبل الباب العالـي بسبب عـدم موافقتهـم على ولايتـه .. ويقـال ان السبب الـرئيسي لخلعـه منسوب الى الكولونيـل « وارنجتـون » القنصـل البريطاني في طرابلس الذي عارض علانية حكمه وكانت هذه المعارضة تدعيما وديا لصالح سيدي محمد القره مانلي المطـالب بعرش طرابلس .. والمعـاضد كذلك لرئيس الثوار « عبد الجليل سيف النصر » مـن قبيلـة اولاد سليمـان بفزان وغومة المحمودي من قبيلة محاميد الجبل !!

وقد كان انهيار الحكم القره مانلي مدعاة لعودة الاتراك من جديد الى نيابة طرابلس الغـرب .. لبسط نفـوذهم عليهـا .. غير ان عـودتهـم الـى مسرح الحيـاة لم يكـن مرحبـا بها من قبـل الاهليـن .. الذين استمروا في القيـام باعمـال الثـورة والعصيـان !! كمـا انهم اظهـروا عدم رضاهم بالشكاوي .. ومقاطعـة اسواق طـرابلس .. وكانت مسألـة اقـرار الأمن في ربـوع البلاد قـد اخـذت من الجهـد والـوقت الشيء الكثيـر ! !

وليس من شك ان الاتراك العثمانيين في عهـد حكمهم الثانـي « ١٨٣٥ ـ ١٩١١ » على نيابة طرابلس الغرب قد نهجوا اسلوبـا جـديدا فـي تـسييس البـلاد .. ويبدو انهم لم يجدوا سبيلا الى مرضاة اولئك الثـائـرين الا ان يتذرعوا في حكمهم بوسائل جديدة اكثر ليونة ممـا عرف عنهم في السابـق ،

وذلك من اجل انقاذ ما يمكن انقاذه من امبراطوريتهم المثلومة التي بدات تحدق بها الاخطار من كل جهة وجانب ! !

والحقيقة ان الاتراك العثمانيين قد اصبحوا يدركون اكثر من اي وقت مضى خطورة الموقف .. بعد ان تاكد لديهم ان دول اوروبا قد بدات تتآمر على املاكهم .. في محاولة لابتلاع اجزاء منها .. كل هذا كان قد دفع الاتراك الى درء الاخطار .. بتدعيم حكمهم .. وتثبيت اركانه في داخل الامبراطورية ،، وقد ادى هذا الى تحسين طريقة حكمهم المحلي في نيابة طرابلس من بعض الوجوه .. ولكن لم يكن في الامكان ان يرى المرء نتائج سريعة لهذا التحول في اسلوب حكمهم ،، اذ كثيرا ما شغل الولاة الذين يبعث بهم ـ الباب العالي ـ باخماد الثورة ،، واطفاء الفتن ،، كما أن عدم الاستقرار قد حال دون ان يتمكن اولئك الولاة من تنفيذ اية اصلاحات تذكر ،، ويكفي ان نشير هنا الى انه في الفترة الزمنية الممتدة فيما بين عام ١٨٢٥ ــ ١٨٨٢ توالى على سدة الولاية ما يزيد عن ستة عشر واليا جاؤوا الى البلاد ثم ذهبوا دون ان يحققوا اية اصلاحات تذكر ! !

واذا حدث ان وجدت النية الحقيقية للاصلاحات من جانب اولئك الولاة ،، فكثيرا ما كانت تواجه بالصعوبات ،، فقد حاول « علي رضا باشا » أن ينفذ عدة مشاريع كان الغرض منها تحسين احوال البلاد ،، ولكن مشاريعه تلك لم تصادف قبولا بسبب الرفض الذي واجهه من قبل اولى الامر ! ! واذا ما تتبعنا الانجازات العمرانية التي قام بها الولاة الاتراك خلال السنوات المتقدمة من العهد العثماني الثاني فاننا نرى أن ابرزها شانا واكثرها استحقاقا للتنويه هي تلك الانجازات التي تمت اثناء ولاية « احمد راسم باشا » « ١٨٦٧ ــ ١٨٨٦ » فقد استطاع هذا الوالي ان يتمتع بثقة الباب العالي ،، وان يباشر عهدا من الحكم امتد لاكثر من خمسة عشر عاما ،، وهي مدة طويلة نسبيا ،، بالمقارنة الى الفترات القصيرة التي قضاها اسلافه في الولاية ،، كما ان تلك المدة الطويلة التي قضاها في الحكم اتاحت له فرصة كاملة لكي يباشر العديد من الاصلاحات في البلاد ،، وهذه الاصلاحات كانت في جملتها تعد من

الانجـازات الكبيـرة والجريئـة في نفس الـوقت ،، ولاهمية هـذه المنجزات رايت ان اقـدم هنا صورة كاملـة لهـا ! !

ان اهم منجزات « احمد راسـم باشا » قد تمثلت فيما ابـداه من عـزم على تدعيـم فكـرة انشاء مبـان جديدة خارج اسوار مدينـة طرابلس القديمة ،، ودون شك فان اهتماما كهذا يسوقنا بادىء ذي بـدء الى الحـديث عن الاسباب التي ادت الى اتخـاذ مثل هذه الخطـوة ،، والحقيقـة اننا اذا القينـا نظـرة فاحصة على تلك المساحـة الصغيرة من الارض التي تحتلها مدينـة طـرابلس منـذ قرون طويلة فاننا حتما سنجدها لا تتناسب مـع حجم ذلـك التـوسع العمـراني الذي تطلبـه حاجـة الناس المتزايـدة على مـر السنيـن ، فعـدد السكان قـد بـدا ياخـذ في الارتفـاع حتى وصل الى ثلاثين الف نسمـة فـي أواخـر العهـد العثمـاني الثاني ، وهذا رقـم قد يبدو قياسيا بالنسبة لمدينة لا تزيـد مساحتها عـن حـوالي كيلو متـر مربـع !

وهكذا فان صغـر المساحـة ، مضافا اليها ازدحام المـدينة أصبحا يشكلان الاسباب الـرئيسية في التفكيـر جـديا في هدم السور ـ أو على الاصح اجزاء منـه ـ وايجـاد متنفس مناسب لحركـة عمرانية تستوعب خطط التنمية التي تتناسب مع زيـادة عدد السكان المطـردة ، ومن هنا فقد كان من المعقـول ان تتجه الانظار الى الاراضـي المتاخمـة لاسوار المدينة ، وعلى امتداد تلك المساحـة الواسعـة منها كانت هناك امكانيـة لتحويل هذه الاراضي المزروعة ، التي تمتـد من « قرقـارش » وتنتهي في « ابي سـتـة » الى انشـاءات ومبـان سكنية ، ففي عهـد ولايـة « احمـد راسـم » انتصبـت عـدة مبـان واخـذت تتشكل على هيئـة قصبـة اكبـر في داخلها في ظرف مـدة قليلة ، ودون شك فان انتقال السكان الى هذه المنطقة قد اقتضى توفير الامـن فيهـا ، كما شيدت العديد من المرافق العامة ، فانشىء « كراكون » مركز شرطـة مـن ايـرادات البلديـة في محلـة ميزران المتصلة بالمقبرة الكبيرة المجاورة لمقبـرة « سيدي منيدر » ، كما انتقل النشاط التجاري الى خارج اسوار المدينـة وفيما كان يدعى بسوق الثلاثاء ، واخذت يد الاصلاح والتعمير تتجه الى هذه المنطقة ، عندما زود هذا السوق برصيف من مال البلدية ، ذى ارتفـاع يبدأ مـن تـحت

سور البلـدة الى مرسى الحلفـا الكائـن في نهايـة الجهـة الشرقية ، وذلـك من اجـل منـع اكتساح ميـاه البحـر لبعض الدكاكين من هذا السوق !

وهكذا فقـد اصبحنا نـرى في هذا الـوقت العديد من المعالم الجديدة ، وقد أرست دعائمها الاولى في مدينة طرابلس الحديثة ، بعد ان تم فعلا انشاء عـدة منشآت ومبـان ومرافق عامـة في اماكن متفرقـة فيمـا كـان يسمـى « بالمنشيـة » ومنـذ ذلك الـوقت اتجهت الجهود لتكثيف هذا النشاط العمراني خارج السور ، مما اعطى للمدينـة عمقـا جديـدا ، ومظهـرا حديثـا اصبحت تتميـز بهما عـن المـدينـة القـديمـة .

طرابلس فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر

عندما نؤرخ لمدينة طرابلس خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، فانه حتما سنجد ان اهم الحقائق المتعلقة بالتطور العمراني ، وما طرا على وجه المدينة من تغيرات متلاحقة ، مرتبطة بشكل أو باخر بانجازات بلدية طرابلس عبر مرحلة طويلة من الزمن !

فمن الملاحظ ان نظام البلديات لم يكن معروفا قبل عام ١٨٧٠ ميلادية ، اذ كان ما يسمى بالسلطات المحلية وعلى راسها « شيخ البلد » هي التي كانت تقوم مقام البلدية ، وكان من مهامها ان تتولى بصورة مباشرة الاشراف على شؤون المدينة وما يتصل بها من مرافق عامة !

ويبدو أن ادخال نظام « البلديات » في ولاية طرابلس قد جاء كحلقة في سلسلة تلك الاصلاحات التي توالت على المدينة ابتداء من عام ١٨٦٢ م ، فقد صار ذلك الاتجاه الرامي الى تكريس جهود البناء والتعمير خارج اسوار طرابلس القديمة ، ـ او ما يسمى بمنطقة المنشية ـ اتجاها رسميا ينمو بشكل مطرد نتيجة للجهود العمرانية المتواصلة التي بذلها الولاة العثمانيون المتعاقبون على ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني ، حيث صار بامكان المرء ان يلاحظ نهضة عمرانية وتقدما مطرد النمو في مجال توفير الخدمات الاجتماعية العامة !

وكان ما يميز هذه المباني الجديدة هو طابعها العصري المتقدم ، وانها اقيمت وفق منهاج جديد يخضع الى ما يسمى بعلم تخطيط المدن ، ومهما يكن من امر فان بلدية طرابلس قد بدات منذ تاسيسها تلعب دورها في مجال تنشيط الحركة المعمارية ، وبالخصوص فقد تركز اهتمامها في انشاء مراكز لتوفير الخدمات العامة ، واليها يعود الفضل وانشاء

مدرسة الفنون والصنائع ، التي ظهرت الى الوجود في عهد « نامق باشا » كما تم في هذا العهد انشاء مرافق اخرى كالمستشفيات والمحاكم والمطابع واقيمت الدكاكين والمطاعم وما اليها من المرافق العامة ، وقد استلزم هذا الاتجاه الاخذ بأساليب الحياة الحديثة ، الى العناية بادخال نظام الخدمات العامة الى المدينة ، وكان اكبر مشروع خططت له بلدية طرابلس ، هو ذلك المشروع الخاص بادخال مياه الشرب الى المدينة ، ففي البدء كان سكان طرابلس يعتمدون على مياه المطر التي تتجمع في الصهاريج الموجودة في البيوت لسد حاجتهم من الماء للشرب ، وكانوا قبل ذلك يعتمدون ايضا على مياه الآبار العذبة في الساحل والمنشية التي كانت تجلب بواسطة الباعة المتجولين !

وازاء هذا فقد فكرت « البلدية » في اسالة الماء من بئر « أبي مليانة » الذي يبعد عن طرابلس بمسافة كيلومترين ونصف وذلك بواسطة انابيب معدنية ، وقد انشئت لذلك خزانات لاستقبال المياه بالقرب من « باب الخندق » بمدخل سوق المشير لتجميع المياه ، وفي عام ١٢٠٨ هـ تم تدشين هذا المشروع في حفل شعبي عام ، حضره وجوه القوم ، وعزفت فيه الموسيقى ، وذبحت فيه القرابين !

كانت مدينة طرابلس الحديثة قد بدات تاخذ طريقها الى النمو ، ولم تكن تلك الخطوات التعميرية التي قام بها احمد راسم خلال مدة ولايته على طرابلس « ١٨٨٢ ـ ١٨٩٨ » ، الا استكمالا للخطوات الاولى التي قطعها في هذا السبيل أسلافه من الولاة ، وفي مقدمتهم « علي رضا الجزائري » وبالرغم من أن الظروف السياسية التي احاطت بعهدهم لم تتح لهم الفرص المناسبة لتنفيذ خططهم في الاصلاح ، فقد كان الاتراك ، بسبب من عدم اطمئنانهم الى الولاة الذين كانوا يتطلعون الى الاستئثار بالحكم لانفسهم ، ويستقلون كما فعل « محمد علي » بمصر و « احمد القره مانلي » في طرابلس ، كانوا يعمدون الى الاكثار من تعيين الولاة وعزلهم ، مما تعذر في اكثر الاوقات ان يجدوا الفرصة المناسبة لاحلال مشاريعهم الاصلاحية والتعميرية محل التنفيذ ، لكن ما من احد كان يشك في حسن نوايا البعض ، غير ان الظروف ـ كما قلت ـ لم تسمح لهم بأن يذهبوا

في هـذا المجـال الى النهايـة ، فاكتفى البعض منهم بان يضع لمسات سريعـة في جـانب من جـوانب الحيـاة ثـم يختفي ، واذا كانت لسياسة تغيير الولاة حسنـات ، فان حسناتها انها كانت تضع اولئك الحكام على محـك الاختبـار الشخصي ، فكان الولاة يحاولون ان يثبتوا جـدارتهم ، وانهم فعالون وقادرون على ان يعملوا ، او هم بالاحرى خليقـون بالمكانـة التي يرفعهم اليهـا البـاب العـالـي !

ان المقيـاس الصحيح يظـل دائمـا يقـاس بما قاموا به من منجـزات أثناء فتـرة ولايتهم القصيرة ، ولم تشفع لهم في ذلك حسن النيـة ، ولا العـزائـم المخلصة في الادارة ، ومهما يكن من امـر فان هذه الدفعـة العمرانيـة الكبيـرة التي تمت في عهـد الـوالي السابق الذكـر « احمـد راسـم » ظلـت المحـور الـرئيسي الذي دارت حوله معظـم المنجـزات العمـرانيـة التي بـدأت فـي النمـو والاتساع واصبح من الميسور ان يـرى المـرء ان هناك مدينة أخـرى ذات تمصيم عصري ، تلملم نفسها في شكل مبان متفرقة هنا وهناك وهـي تـزحف في اتجاهـات عديدة على أراضي المنشيـة ، والى مـا وراء سيـدي الشعـاب شرقـا ، وقرقارس جنوبـا وعلى امتداد البساتين المجاورة ، وهكذا فقد أخـذت هذه المدينة تجتذب اليها السكان ، كما اخـذت في نفس الـوقـت تمتص جـزءا من تلك الحركـة الدائبة داخل اسوار المـدينة القديمة ، وبامكان المـرء أن يتصور ان السكان المنتقلين الى السكنى في هذه الاحيـاء المنتصبـة حـديثا كانوا في اكثرهم من الاجانب ، اذ ظـل الاهلون يحبذون البقـاء حيث هم داخـل الاسوار ، وان كان البعض من الملاك والميسورين قد زاوجـوا بيـن سكنى المـدينتين معـا ، اذ ظلوا يحتفظون بذلك التقليد القديم الذي يحرصون فيه على الاصطياف في بساتين لهم فيما كان يسمى « بالمنشيـة » !

ومهما يكن من امـر فان المـدينة الحـديثة ظلت تشكل في حـد ذاتها شيئـا من الاغـراء الذي يجتـذب اليها المـزيـد من القاطنين الجـدد ، فهي من الناحية الصحيـة اكثر ملاءمـة من سكنى المـدينة القديمة التي اصبحت تكتظ بالآلاف من المقيمين بها من مختلف الاجناس ، وليس في مقدورها ان تتسع الى المـزيد منهـم ، هـذا مـن ناحيـة ، ومن ناحية اخـرى فالمدينة القديمـة لـم تعـد تستجيب في واقـع امـرها للتطلعات العصرية ، فقـد كانت البيـوت فـي

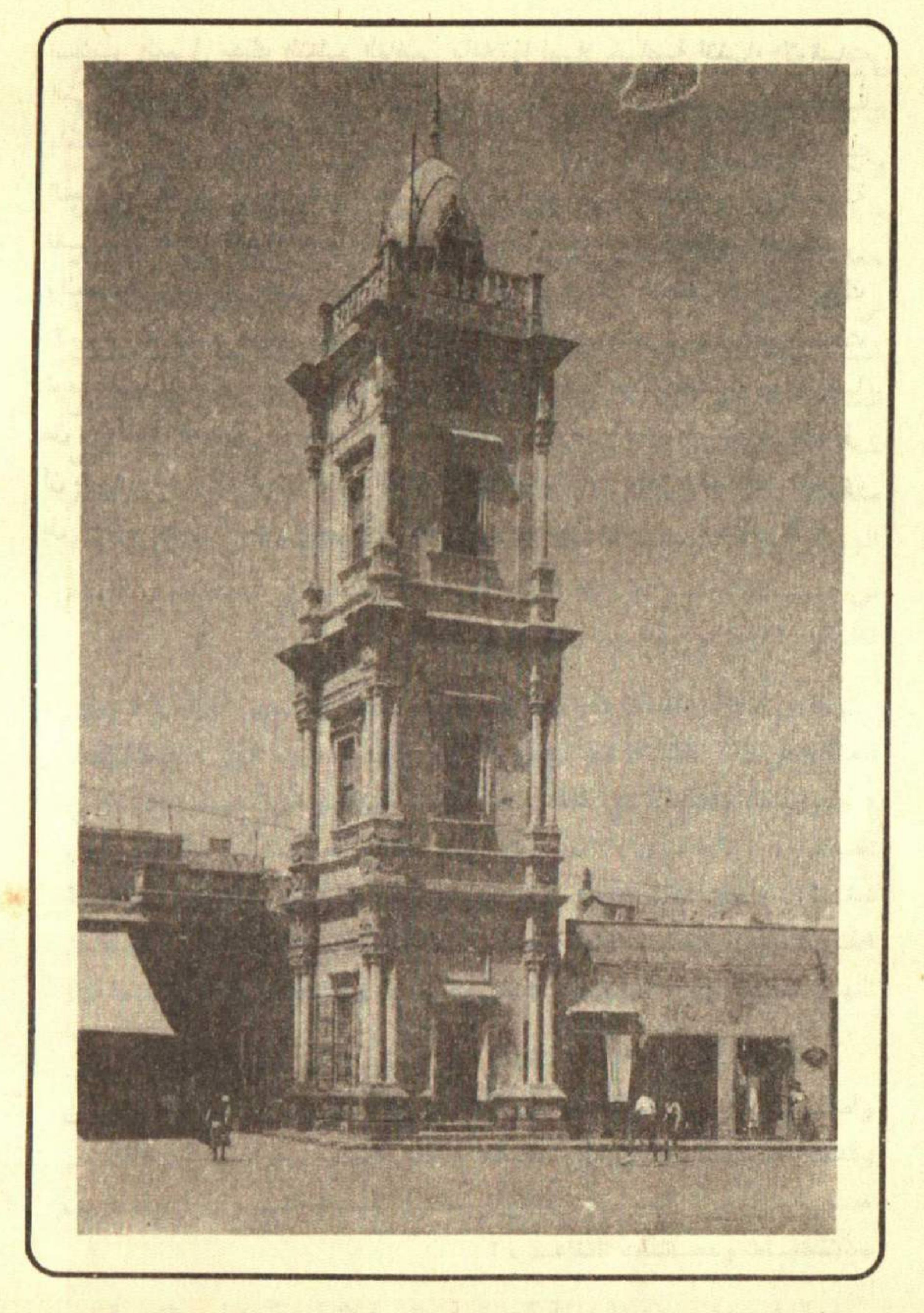
طـرابلس معظمهـا عديـم التنظيـم ، وبناياتها منخفضة ، وكـانت الشوارع الرئيسـية غير معبدة ، وتضاء بالليل بقناديل « الكيروسين » اما الشوارع والحـارات الصغيـرة ، وعلى الاخص في احيـاء اليهود « الحارة الكبيـرة » ، و « الحـارة الصغيرة » ، فقد كانت قـذرة تعـاف رائحتها الانفس ، وظلامها حالـك ، وكانت موحلـة في موسم الامطـار ، وكان عـدم وجود مجـار للميـاه في تلك البقعـة يزيـد من قذارتهـا ، اضف الى هذا كله ان المدينة الحديثـة قـد بـدات تنازع المـدينة القديمة في احتـواء المصالح الحكومية والمـؤسسات العلميـة والمرافق العامـة ، وتمكنت من ان تأخـذ قصب السبق في هذا المضمار كـل هذا كان سببا قد استجلب الحركـة من حولهـا ، واخـذت تنمـو علـى مشارفها « اقصد المصالح والمؤسسات والمرافق » الحياة الاجتماعية ، وقد تدعم الوضع الجديد في المدينة الحديثة بظهور القوانين البلدية في « الآستانة » في عـام ١٨٧١ م والتي اخذ الولاة الاتراك في تطبيقها في طـرابلس في العـام التـالي ١٨٧٢ م !

وما من شك ان قيـام النظـام البلدي في المـدينة قد اسهم اسهامـا لا يمكن اغفالـه في بعث النشاط العمـراني وهو لم يتجاوز طوره الاول ، ويحـدثنـا « جـوزيـف كاكيـا » في كتابـه عن ولايـة طرابلس في العهـد العثمـانـي الثـاني « ١٨٢٥ ـ ١٩١١ م » عن اهـم اعمـال البلديـة في ذلك الـوقـت فيقـول : « كان عمـل البلديـة يختص بنظـام الاسواق ومراقبتها ومراقبـة اطفاء الحريق وتنظيف البلدة ومساعـدة الفقراء والسيطـرة علـى امـاكـن اللهـو العامـة كدور الخيالـة والملاهي والمـانات وغيرها من المرافق العامة » !

« وكانت ميزانيـة البلدية تشتمل على بعض الايرادات كمكوس الاسواق وأماكـن الـذبـح « السلخانـة » ، وكذلك ضريبة المقاييس والمكاييـل والاوزان وكانت المصاريف تحتوي على ماهيات موظفي البلدية وحراسها ، وكذلك على مصاريف انـارة الشوارع وتنظيم وسائـل ميـاه الشـرب ، ومصاريف مستشفيـات ومعـاشات التقاعـد » !

وبالرغـم من وجود المـدينة كحقيقـة واقعـة الا ان طـرابلس القديمة قـد استمرت في الاحتفـاظ بكيانها المستقل داخـل اسوارهـا وابـوابهـا ، كمـا

استمـر العمـل بذلك التقليد القاضي باغلاقها ليـلا خـاصة أثنـاء الاوقـات التي لا يستتب فيهـا الأمـن ، ولـم يقـع التفكيـر فـي مــزج احـداهمـا باخـرى الا في عـام ١٩٠٩ عندما اتـخذ ذلك الاجراء الرامي الى هـدم ذلـك الجزء من السور الواقع في الجهــة الغربية من المدينة القديمة ، والحقيقة فقبـد كان هـذا الاجراء هـو بمثابـة استجابة لـدواعـي التطـور السكانـي والعمـرانـي ، وان ظـل يعني ايضا ان الاستمرار في الاحتفـاظ هنـا بتلك الاسوار لم يعـد ما يبـرره من الناحيــة الدفاعية والعسكريـة التي حـدث فيها تغيير شامـل ، بعـد أن اخترعت الآلات القاذفـة « المـدافـع » وما اليهـا من وسائـل الدمـار ، وبعـد ازالة هـذه الاجـزاء من السور أصبح من السهل أن يـرى المـرء أن المـدينتين « القديمـة والحـديثـة » تكمل احـداهما الاخرى بل أخذت بعض الشوارع في احداهما تكمل بعضـها بعضـا في الجانب الآخر .



١٤ ــ برج الساعة القائم بميدان الساعة في المدينة القديمــة

برج ساعة طرابلس

ابراج الساعات الكبيرة احد المظاهر التي تعرفها جيدا مدن أوروبا التي تفاخر بكثرتها وتعددها ، غير ان هذا المظهر قد انتقل الى مدننا العربية ، حيث عرفت هي الاخرى هذا النوع من التقليد الجاري في مدن الغرب ، ولعل من اقدم هذه الابراج التي عرفتها المدن العربية ، هو برج ساعة طرابلس ، فهذا البرج له قصة مع التاريخ ، قصة يمتد عمرها الى اكثر من مائة عام وعام !

ففي عهد ولاية « علي باشا الجزائري »(١) « على ايالة طرابلس الغرب ، فكر هذا الوالي ، الذي تعلم في فرنسا ، وتثقف بثقافتها ، ضمن ما فكر فيه من مشاريع التعمير والاصلاح ، ان يبني برج ساعة طرابلس ، اسوة بما رآه ، او سمع عنه في مدن اوروبا الكبيرة ، ولا بد انه وهو يقدم على مثل هذا العمل ، كان يفكر باستحداث شيء ما ، لم يسبق اليه احد من قبل فقد اعتاد اسلافه من ولاة طرابلس ان يعمدوا الى تخليد ذكراهم باعمال لا تتجاوز في الغالب بناء جامع ، او فتح مدرسة ، او تشييد حصن ، وهم قلما يتجه بهم تفكيرهم الى اكثر من هذا المدى ، لكن يظل للجامع دائما الشيء الذي يتجه اليه تفكير بعض الولاة دون سواه ، وبينما كان القصد من بناء الجوامع هو تخليد الذكر ، وعمل ما يراد به في الاساس التقرب الى الله ، وطلب المغفرة والثواب ، فان انشاء برج ساعة طرابلس كان عملا لا يخلو في مضمونه من فعل البر والاحسان لما يتصف به من ضرورة حياتية ملحة في مثل ذلك الوقت المتقدم

---

(١) تولى « علي رضا باشا » الملقب بالجزائري حكم ولاية طرابلس الغرب مرتين ، الاولى عام « ١٨٦٨ — ١٨٧٠ » اما ولايته الثانية فكانت في عام ١٨٧٤ — ١٨٨٢ » وانا ارجح بان بناء برج ساعة طرابلس قد تم في عهد ولايته الاولى .

على الاقـل ، ومهما يكن من امـر فان « علـي رضا » قد سمح لنفسه ان يفكـر بطريقـةجديـدة عند ما انشأ في عهـد ولايتـه القصيرة بـرج ساعة طرابلس ، وبدأ في اقدامه على عمل كهذا ما يترجم عن مسلك متوائم مع روحه المتطلعة لحب التجديد ، ومجاراة روح العصر ومتطلباته الجمالية !

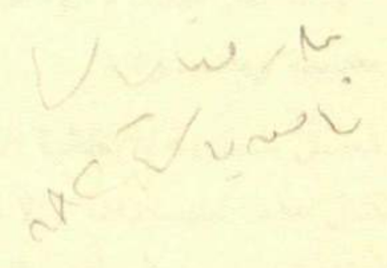
وفي زاويـة بارزة من مدخـل سوق الترك حيث « ميدان الساعـة » كـان قـد تـم وضع حجـر الاساس لهـذا البرج على يـد بنائين مهرة ، حيث بدىء بتنفيذ الفكرة في عام ١٢٨٢ هـ ، وتـم استيراد الآلات الخـاصة بالساعـة من « الطوبخانـة » باستانبول ، وجرى الانفاق على هذا المبنى من ريع وقف السور ، اي من واقع ميزانية دائرة الاوقاف ، وتم بذلك اعـداد هذا البرج على الطـراز المعمـاري التركي ، فهو كما يبدو اليوم يشبـه مئذنـة مـربعـة الشكـل ترتفع على سطح الارض بما يزيـد عن ١٨ متـرا مقسما الى طـابقين اثنين ، كـل طابق تطل منه اربـع نوافـذ ، اما الطابق الارضي فله بوابة تطل على الميـدان وعلى زوايـا برج الساعـة من اركـانها الاربعـة ، تقـوم اعمـدة من الرخـام تتقابل في منتهاهـا بعقود من التيجـان ، وهـي تبـدو وكـأنها تحتوي المبنى كلـه داخـل اطـارها الرخـامـي المزخـرف !

وفي عهـد ولايـة « نامق باشا » ١٨٨٢ ـ ١٨٩٨ جـدد بناء « برج ساعـة طـرابلس » ويبدو انـه قد اضيفت اليه بعض الزخـارف ، لكننـا لا نعـرف بالضبط مـدى ما ادخـل عليه من تجديد ، ومقدار ما زيـد عليه من اضافات !

ولقـد ظـل برج ساعـة طرابلس يعمـل بصفة دائمة كساعـة لتنبيه الناس للـوقت ، فضلا عـن كونـه كان يستعمـل في اغـراض المـواني والمنـائـر ، حيث بـدأت آذانهـم تألف دقاتها الـرتيبة الرنانـة كل ربع ساعـة ، وقد كان لهـذه الساعـة موظف يديـر شؤونها ، ويضبط اوقاتها ، ويسهر على ادارتها ، وقـد استمرت ساعـة طرابلس في القيـام بمهماتهـا عشرات السنيـن حتـى اصبحت دقاتها المعتـادة جـزءا لا يتجـزأ مـن جلبـة المـدينـة وضجيجهـا المستمر ، فهي تبدد الكسل عن كواهل الاذهان المتعبـة ، والابـدان المكدودة في النهار ، وتقطع الصمت في هجيع الليل ، ليل الشتاء الطويل ، وبما ان بـرج ساعـة طـرابلس كان لـه صفته « شبه العسكـريـة » لأنـه يشـرف

بقامته المـديـدة على ميناء طرابلس عن قرب ، فقـد تعرض للاصابة بقنابـل الحـرب العالميـة الثانيـة ، ويبدو ان الاصابة كانت مباشرة ، الأمـر الـذي ادى الى تـوقف آلاتها عن العمـل ، ومنذ ذلك الوقت فقد سكتت ساعة طرابلس عن دقاتها ، وكأنها آثـرت الصمت عن الحـديث الهـامس في آذان النـاس ، وقد نبـه احـد الكتاب الوطنيين الغيورين «٢» الى ان الاجزاء المتبقية من هذه الساعـة التاريخيـة المعطوبة قد بيعت على انها مخلفـات ، وصـدرت الـى الخارج ، ويعني هذا انها قد اعتبرت شيئا كالخردة ، وانه قد انسحب عليها ما انسحب على مخلفات الحرب العالمية الثانية من الحديد الخردة ، خلال عهد الانتـداب البريطـاني على طـرابلس ، وقـد يكون هنا مجرد تخميـن ، اما الاقرب الى المعقـول ان هذه الساعـة التاريخية هربت الى متاحف اوروبـا ، وربمـا تـم هـذا بواسطـة اليهـود الذين عرفـوا بالاتجار بالحديد والخردة ، واثـروا على هذا النمط من التجـارة ثـراء كبيـرا ، !

وساعة طرابلس اليوم ما تزال تقف بهامتها المديدة في كبـرياء وشمـوخ واعتزاز بمرور مائـة سنة من عمرها ، قامت خـلاله مبان من حولها ، وزالـت خـلاله مبـان اخـرى ، وجـاء عهـد ، وانقضت عهود ، وهي باقية على حالتها ، لا تتغيـر ،، والجديد فقط هـو التزامهـا بالصمت بعـد الحـرب ، والصمـت كما يقول المثل احيانا ابلغ من الكلام .



(٢) كتب هذا الكاتب الوطني الغيور مقالا بجريدة « شعلة الحرية » في ١٧ يونية ١٩٥١ م مذيلا بتوقيعه « متالم » وقد اقتبست عنه كثيرا من المعلومات الواردة في هذا الفصل .

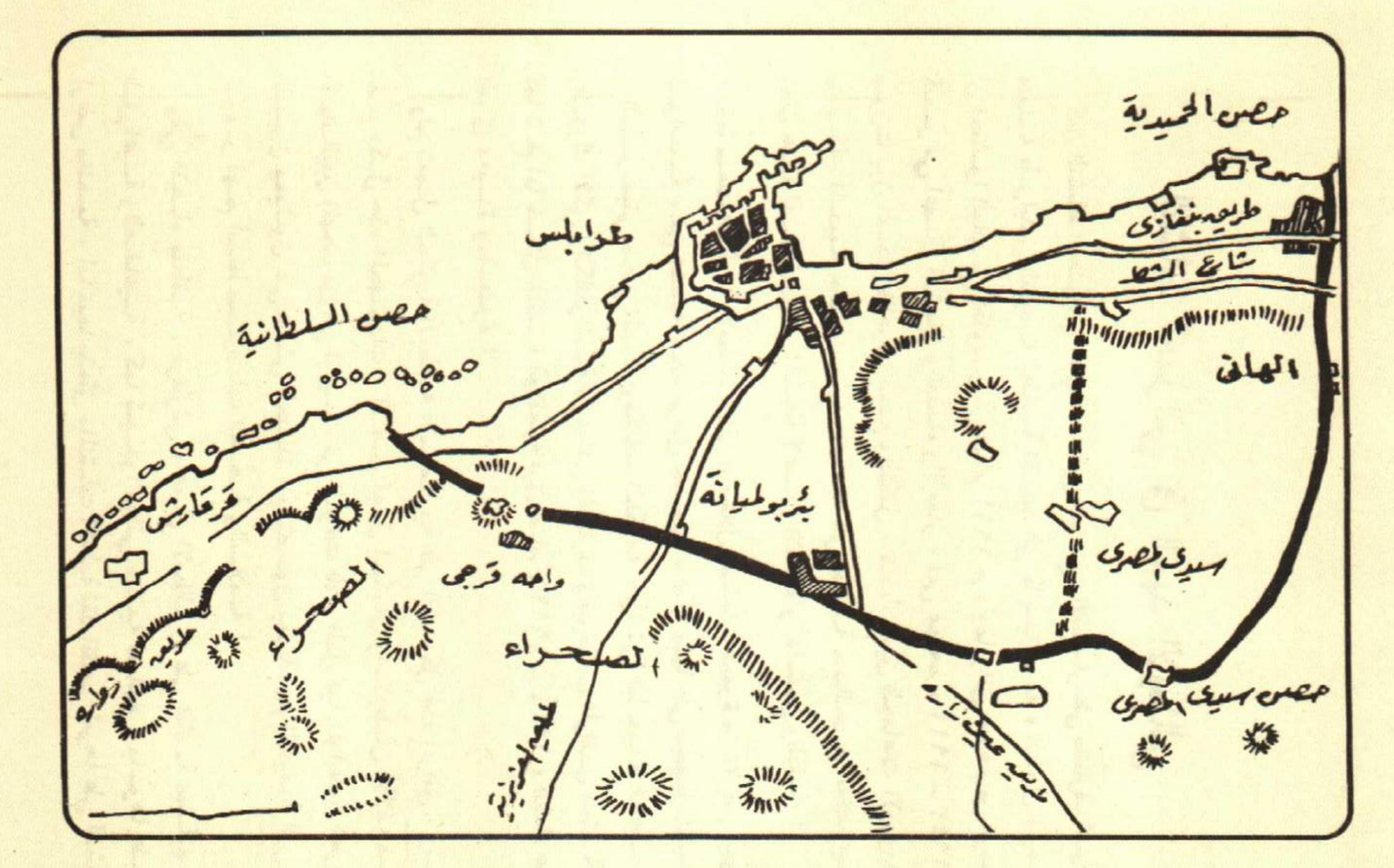
النشاط العمرانى فى العهد الايطالى

كان النشاط العمراني الذي اخذ في التوسع والانتشار على مشارف اسوار مدينة طرابلس القديمة بمثابة التمهيد الى ما سيقوم به « الطليان » بعد ان احتلوا البلاد في اكتوبر من عام ١٩١١ م ، وما رافق عهدهم من توسع كبير في اعمال التشييد والبناء والاعمار ، ففي عهدهم « ١٩١١ ـ ١٩٤٢ » برزت بين السكان ظاهرة التجمع والتكتل ، فنشأت بين الجماعات الاوروبية من سكان المدينة جمعيات ونواد تهدف الى حماية مصالحهم العنصرية وكان هذا احد الدوافع المنشطة لاعمال الانشاء والتاسيس والبناء !

كما سعت الحكومة الايطالية الى استغلال مساحات كبيرة من الارض البور الواسعة ، في اضافة عدة مرافق حكومية ، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مبنى مجمع المحاكم ومكاتب الحكومة ، ومبنى البلدية الجديد ، والدرك الملكي والكاتدرائية ، ومباني المصارف وغيرها من المرافق العامة ، كما تم لها خلال الفترة الواقعة بين عام « ١٩١٢ ـ ١٩٢٤ » انشاء عدة طرق معبدة ومشجرة !

ولم تعمل الحكومة الايطالية الاستعمارية على انشاء كل هذه المرافق ، ولم تقم بكل هذه المجهودات ، الا من اجل اسكان واستيطان الآلاف من الايطاليين المهجرين الى ليبيا ، في الوقت الذي ظل فيه المواطنون العرب الليبيون يعيشون على هامش الحياة ، يعتصمون بمساكنهم القديمة التي لا توفر لهم ابسط مستلزمات الصحة والسلامة !

وفي اتجاه منطقة « قرقارش » عمل الايطاليون على اقامة منشأتهم الزراعية والصناعية ، كما شيدوا مباني سكنية لعمالهم ، بنوها على اراض مغتصبة ، اما فيما يتعلق بالمنشآت الاهلية فقد اقتصر امرها على النشاط



١٥ — السور (الكردون) والحصون التي أقامها الايطاليـون ليحتموا بها من هجمات المجاهدين الليبيين والخريطة تبين أيضا المواقع والتحصينات العسكرية والبوابات لضبط حركة الدخول والخروج من والي المدينة (١٩٢٨) م

الخاص ببناء المساكن ذات الطابق الارضي الواحد ، واغلبها اقيم على الطراز العربي ، كما نشأت في هذا الوقت مبان اهلية ضخمة من عمارات وما اليها ، في نقاط كثيرة من المدينة !

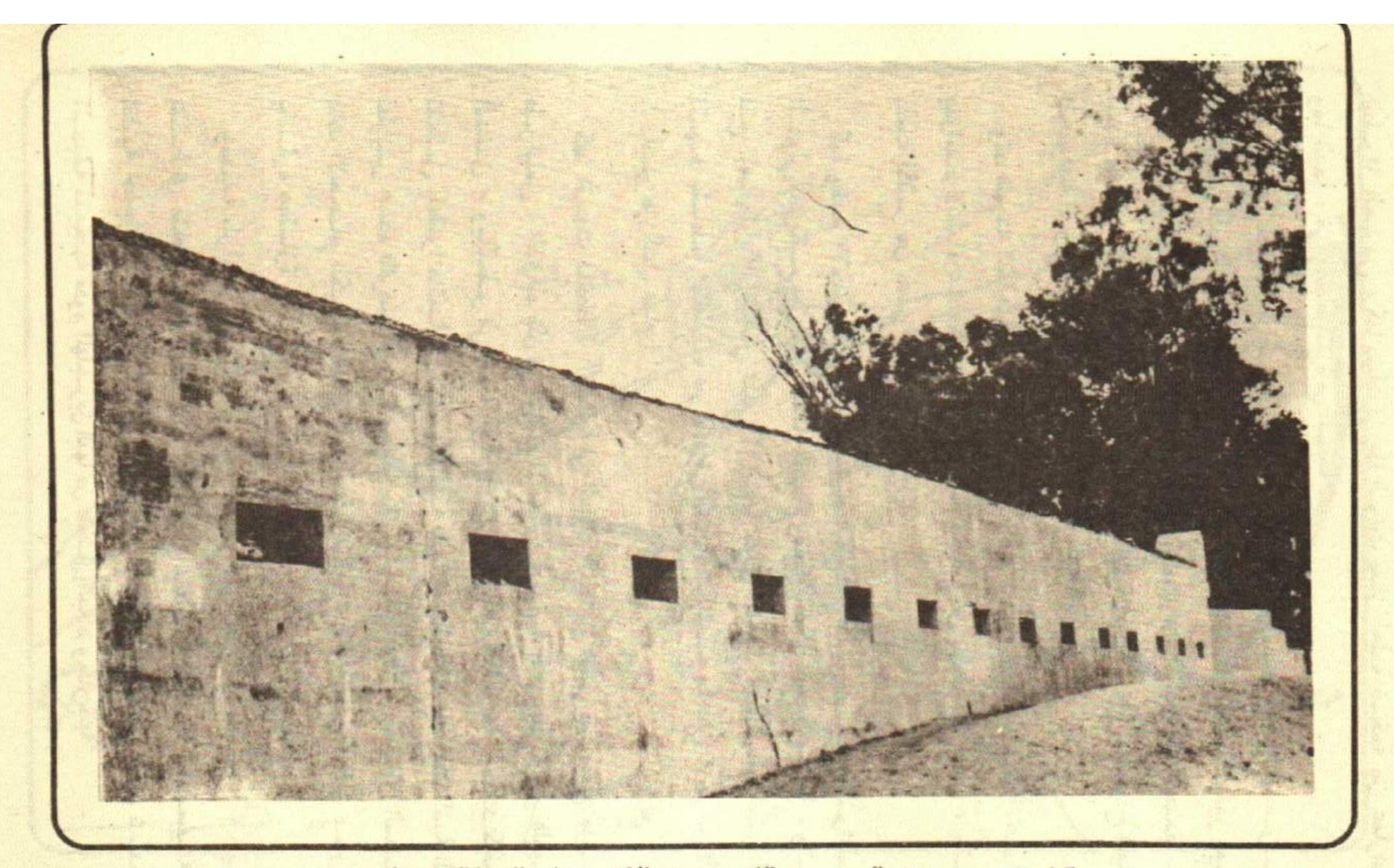
وبما أن مدينة طرابلس قد زاد حجم سكانها بازدياد عدد المهاجرين الايطاليين اليها ، فقد وجدت بلدية طرابلس نفسها امام مشكلة توفير مياه الشرب بزيادة الضخ ، وهذا يتطلب منها البحث عن الوسائل الحديثة بدلا من الوسائل القديمة ، التي كانت تعتمد على البخار في استخراج المياه الجوفية ، واستجلابها الى المدينة !

وقد ظهرت الحاجة الى استحداث دور للعرض السينمائي ، واخذ الاهتمام يتزايد لانشاء عدد كبير منها في انحاء مختلفة من مدينة طرابلس ، وقد بلغت اكثر من خمس عشرة دارا للعرض !

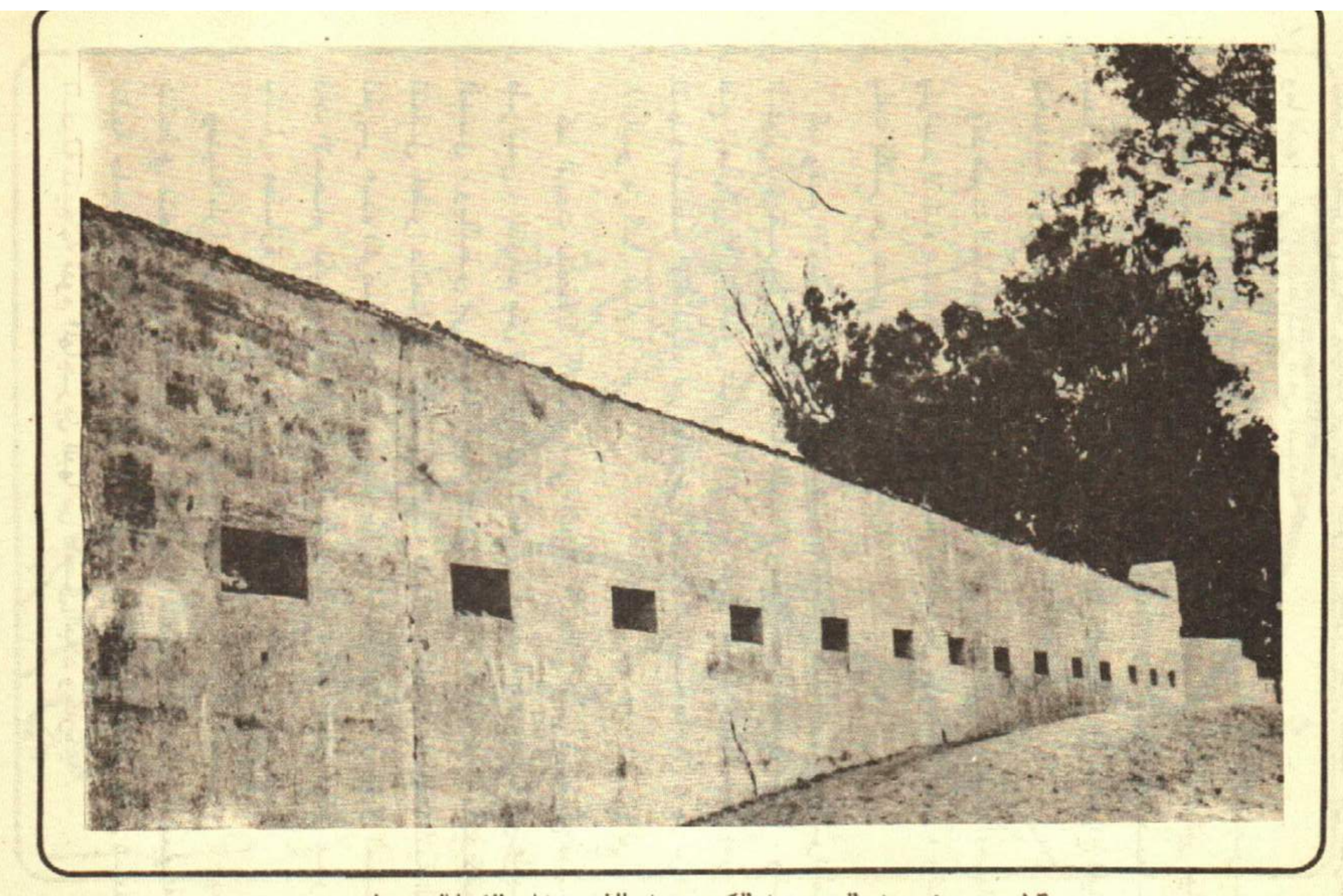
كما وقع الاختيار على منطقة واسعة اقيم عليها معرض طرابلس الدولي ، وتقع بين سوق الثلاثاء القديم ومحطة سكة الحديد سابقا . وقد فتح المعرض أبوابه في عام ١٩٢٦ م ، حيث اعتادت مدينة طرابلس أن تشهد نشاطا اقتصاديا غير عادي في الفترة الواقعة ما بين ٨ مارس الى ٨ مايو من كل عام !

كما اتجهت المخططات الانشائية في العهد الايطالي الى توسيع ميناء طرابلس ، الذي لم يكن في الواقع الا مجرد فرضة بحرية ترسو عليها السفن ، وبالنظر الى طبيعة الميناء القديم غير الملائمة للملاحة ، فقد كانت تشكل خطرا دائما على السفن القادمة اليها ، وعليه فقد اتجهت النية الى تطوير هذه الفرضة البحرية وجعلها ميناء واسعا مأمونا ، يستقبل السفن ذات الاحجام الكبيرة ، كما أن الميناء على امتداد « الكورنيش » كان مزودا بأنارة ممتازة !

ومدينة طرابلس لا تزال الى اليوم تنمو نموا عمرانيا مطردا ، حيث تنشط في مناطق مختلفة اعمال بناء العمارات والمنشئات والمساكن الشعبية ، لتلبية حاجات الناس المتزايدة الى السكن ، بعد الاقبال الشديد الذي شهدته المدينة نتيجة قدوم المهاجرين اليها من داخل البلاد وخارجها .



١٦ — جزء من السور (الكردون) الذي بناه الايطاليون لصد هجمات المجاهدين وقد ازيلت أجزاء كبيرة منه ولم يبق منه قائما الا اجزاء قليلة



١٦ ـــ جزء من السور (الكردون) الذي بناه الايطاليون لصد هجمات المجاهدين وقد ازيلت أجزاء كبيرة منه ولم يبق منه قائما الا اجزاء قليلة

وظهور النفط في ليبيا قد ساعد دون شك في استقطاب الآلاف من طلاب العمل الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم منذ الستينات !

وقد بات اليوم أن هناك الكثير من مظاهر التطور العمراني بمدينة طرابلس يقابله الكثير من المشكلات المعقدة التي تتطلب منا بذل الجهود الضخمة وتنسيقها ، حتى تكون الحياة مريحة بالنسبة لكل من يقيم في هذه المدينة المتنامية .

المدينة تتطلع الى البحر

كان خليج طرابلس الصغير ، يعطي دائما خلفية طبيعية جمالية . تضفي على المدينة البهجة والروعة والبهاء !

والحقيقة فقد كان شاطىء طرابلس يشكل على الدوام اهمية خاصة للمدينة القابعة وراء أسوارها ، ففي شهور الصيف القائظة يكون الاتصال بالبحر الوسيلة الوحيدة التي تخفف من قسوة تلك الرياح الساخنة اللاهبة ، التي تأتي عبر الصحراء البعيدة ، وليس بالغريب اذن ان يتفنن اهل طرابلس في اعداد بيوتهم بالشكل الذي يجعل اسطحها مناسبة لاستقبالهم في ليالي الصيف الحارة ، حيث يكون اتصالهم بالبحر يشكل مجالا من مجالات الاستمتاع ، وقد يستغرقهم ذلك الاستمتاع بنسيم البحر العليل الى الحد الذى ينامون عليها في الهواء الطلق الذي يهب عليهم من الشاطىء !

وتطلع سكان المدينة الى البحر ، يعد شيئا طبيعيا ، فهذا الافق البعيد الذي يستطيع الانسان ان يسرح فيه بصره الى ما لا نهاية او حدود ، هو الشيء الذي تتحرر فيه النفس من قبضة الاسر ، الذي يشعر به انسان المدينة. ولذلك فقد اهتمت المدن الساحلية بتهيئة شواطئها ، لتكون مصدرا لادخال البهجة والسرور على سكانها ، ولست ادري بالضبط مدى ذلك الاهتمام الذي لقيه شاطىء طرابلس عبر مراحله الطويلة المتبدلة ، ولكن على التحقيق كان شاطىء المدينة ، سواء في ايام السلم او الحرب ، همزة وصل بينها وبين العالم الخارجي ، ومن ثم لا بد ان تدعو الحاجة الى وجود اهتمام ببناء أرصفة لاستقبال السفن ، أو اعداد فرضات لانزال البضائع أو شحنها ، وهذه الارصفة ، او تلك الفرضات متى اصبحت معدة ، كانت تستغل ايضا للنزهة والترويح !

وها هي المسز توللي التي اقامت في العهد الاخير من حكم القره مانلي ،

تحدثنا عن ذلك الرصيف الذي يهرع اليه كبار الشخصيات في طرابلس خلال الامسيات ، حيث يستمتعون بنسيم البحر العليل ، او يقضون بعض الوقت في التمشي عليه ، خاصة ساعة الاصيل الحلوة اللذيذة !

وكان ذلك الرصيف على اكثر تقدير مجرد نرسانت صغيرة لا اكثر ولا اقل ، وظل الحزام الفاصل بين الشاطىء والمدينة المسورة مزدحما بالبساتين واشجار النخيل ، او ارضا بورا غير مشجرة !

وها هي زائرة اخرى لطرابلس هي المسز « ميبل تود » ـ ١٩٠٠ ـ تصف ميناء طرابلس فتقول :

« ان وصولي الى ميناء طرابلس المتلالىء في الصباح الباكر ، كان مهرجانا مسرحيا تقريبا لسفن اجنبية ، ترفع اعلام اليونان وتركيا وفرنسا ، او مهرجانا مسرحيا لقوارب صغيرة محلية ولصيادي الاسماك والغواصين على الاسفنج ، ولكل الحياة المثيرة للفضول في مجتمع متميز غير أوروبي » .

وتستطرد في وصف المدينة قائلة : « ان السور القديم والقلعة والمساجد الرائعة المستديرة ، والعدد الكبير من المآذن التي تعلوها قباب مذهبة واهلة ، والنخيل الكث والحزام الاخضر الفاصل بين البحر وكثبان الرمل والصحراء والضريحين المقببين الواقفين جانبا على راس صغير ، كل هذه الاشياء كونت مشهدا ذا جمال رقيق ، ولا تبدو المنارة القديمة بناء غريبا ، ولكنها تبدو جزءا متكاملا مع الصخور التي يغسلها المد والتي كون منها » !

وعلى التحقيق فانه لم يفكر احد في اقامة ـ كورنيش ـ على شاطىء طرابلس ، وبالمعنى الذي نعرفه اليوم ، بل لعله لم يكن في الامكان ذلك ، نظرا لظروف السور واستقلال المدينة بذاتها في داخله ، الا بعد ان خلعت المدينة اسوارها وانتشرت المباني من حولها ، وقد جاء هذا مع بداية هذا القرن ، وبالضبط بعد ان تم لايطاليا السيطرة على المدينة بعد احتلالها فى عام ١٩١١ ، ومن ثم اخذت في بناء التحصينات المتمثلة

في ذلك الحائط المضروب حول منطقة كبيرة من ارض المنشية ـ العلاونة الرقيعات ، وقرقارش وسيدي المصري والهاني وابي سليم ، الى ان يلامس البحر في نهاية طرفيه ، وقد اعطت تلك التحصينات ظهيرا عسكريا ، استطاع الطليان ان يدعموا به بادىء ذي بدء مركزهم الحربي في المدينة والاراضي المحيطة بها ، مما مكنهم من استحداث بعض المنشآت المدنية للخدمات العامة ، وقد شمل هذا تحسين استغلال المنشآت البحرية للمدينة لاغراضهم الانتفاعية ، فقبل عام ١٩٢٠ م « لم يكن ميناء طرابلس سوى فرضة طبيعية ترسو عليها السفن ، مفتوحة ذات خطر على الملاحة ، وقد منحت طرابلس ميناء مأمونا واسعا يستقبل سفن النقل ، قابلا لان تمتد ارصفته الى كيلو مترين تقريبا ، وكان لا بد ان يتبعوا هذا بأنشاء الطريق المحاذي للبحر بما يعرف اليوم بطريق الفتح » !

وعلى الجانب المحاذي لميناء طرابلس وابتداء من محطة الكهرباء في الناحية الغربية بالمدينة ، ويمتد الى ان يصل ميناء القره مانلي المحاذي لزاوية الدهماني .. على هذا الجانب بني كورنيش طرابلس الذي جمع في هندسته بين الروعة والقوة والمتانة .. فهو يشبه في وضعه الذي كان عليه قبل هدمه مجموعة من المنائر صفت بانتظام حول الميناء بحيث تبدو وكأنها ابراج عالية !

« وقد كانت الى جوار الميناء مساحة شاسعة من الارض المنحرفة الاضلاع ، وكانت تتحول بسقوط الامطار الى مستنقعات وبرك تتجمع فيها المياه القذرة فتجعلها خطرا على الصحة العامة ، هذه الارض سرعان ما اصبحت حديقة غناء على شاطىء البحر ، واضحت تساهم هي الاخرى في منح الزائر القادم اليها منظرا بهيجا ، وهناك مساحة كيلو مترين من سواحل الكورنيش المشجرة تحيط بها الحدائق ، وفي كل مكان مقعد ، وفي كل موضع نخلة او شجرة ، وفي الحرب العالمية الثانية تعرض ميناء طرابلس الذي كان يستعمل لمصلحة قوات المحور ، للقذف بقنابل الطائرات ، كما اغرقت فيه بعض السفن ، الا ان الكورنيش قد استطاع بفضل قوته ومتانته ان يصمد في نهاية الامر في وجه تلك الطائرات ، حتى انها لم تنل منه الا اضرارا بسيطة ، هذا الكورنيش

للاسف قد اختفى بفعل قرار اهوج صدر عام ١٩٥١ ، وازيلت معالمه القديمة الصامدة ، كما أزيلت أوبرا طرابلس وشريط السكة الحديد الذى كان يربط تاجوراء بزوارة ... انها غلطة ارتكبها المسؤولون فى العهد السابق .. وذهب مرتكبوها من غير حساب .

المدينة القديمة .. فى طريقها الى الزوال !

انها تشبه ذلك المتحف الكبير .. المليء بالكنوز والآثـار الثمينة .. وعلى صغـر رقعـة الارض التي تحتلها .. الا انها تعـد منطقة غنية بـزخـم مـن الآثـار والمعالـم التاريخيـة .. وشتى مخلفـات الفـن .. ففيها جامـع درغوث وأحمـد باشا وجامـع الناقـة وكليـة عثمـان باشا والسراي الحمـراء .. كما تشتمل على بيـوت وفنادق واسـواق وحمامات تستحـق النظـر والتامل من جميـع المـؤرخين والـدارسين .

ان مدينـة طـرابلس لا تـزال تشكل المرجـع الوحيد في اقتفـاء أثـر ذلـك الطـراز النـادر من البيـوت الليبيـة .. بساحاتها المكشوفـة ذات الاروقـة الـواسعـة « والسقائف » الطويلـة ، والشرفات ذات المشابك الخشبية « التى تدل على نهج في الحياة دقيق وصارم » !

ان هذا الطراز من البيوت الليبية التي تضاهي افخر القصـور ، قد بدأت تنهـار وتهتـدم بعـد ان رفعت عنها يـد الصيانـة ، وتـركت هكـذا تحت رحمـة ذلك الصراع غير المتكافىء مع الزمـن ، !

فقد دخلنا تلك البيـوت « التي كانت في يوم من الايام مبـان لقنصليـات دول اجنبية عديدة » وقـد راينا كيف عبثـت بهـا السنون ، وتحـولت الى شيء يشبه الخـرائب ، أما بعضها الآخر الاكثـر حظا ، فقد بـدأ يستغل كمـلاجيء لسكنى صيادي السمك ، او يستعمل كمخازن لتجمع امتعة الصيـد البحري ، كما وقفنا على ما آلت اليه اسواق مدينة طرابلس القديمة التي كانت في وقت قريب شاهد عيان على عهود نشطت فيها تجارة القوافل ، وكانت ملتقى لشتى أنـواع البضائع القادمـة من « بـر السودان » مثل هذه الاسواق لم يبق منها ما يحـدثنا عن ماضيها سوى مظهرهـا المعماري الذي بقى يتحدى الزمن ، وقد اطلعنا في اكثـر من فندق من فنادق مدينة طرابلس القديمـة ، واخـذنا

نتأمل في اقربها الى « سوق الترك » فالتقينا بساحته الواسعة ، واعمدته الرخامية « التي تزيد في عددها عن الاربعين عمودا » وأرضيته المبطلة بخالص الرخام النادر ، ويملأنا الاسف لما آلت اليه اوضاعه ، ان مثل هذا الفندق ونظائره بمدينة طرابلس كثيرة ، تشهد بحق على آخر عهد في طراز معماري ، بدأت شمسه تغرب عن بلادنا .

وهذه الاسواق ، وتلك الفنادق ، قد تحولت هي الاخرى ، ومنذ سنوات بعيدة ، الى ما يشبه الخرائب ، وان ابت الا ان تبدي من محاسنها ومآثرها القديمة ما ينبىء عن عهد زاهر قد ولى !

والقضية التي نعرضها هنا .. هي قضية مدينة تاخذ طريقها شيئا فشيئا الى الزوال .. مدينة تريد ان تختفي من على وجه الارض ، كما اختفت « اويا » « اويا » من قبل عندما « ابتلعتها الرمال في جوفها » ، وهناك الكثير من « وبالاخص تلك التي تقع في الحارة » و « الاربع عرصات » و « القبة » وغيرها ، وقد تهدمت فعلا واحدثت ثغرات في شوارعها وازقتها ، وبحكم الوضع المعماري الذي يجعل من مدينة طرابلس القديمة ككل كانه بناء واحد يشد بعضه بعضا ، فاذا سقط جزء منها في مكان ما تداعت له الاجزاء الاخرى .. اذن فالخطر الآن ليس محصورا في تلك الاجزاء التي قد تداعت ، واصبحت اثرا بعد عين ، كما يقول المثل ، وانما الخطر كله يتركز فيما يمكن ان تؤول اليه بقية الاجزاء الاخرى التي تنتظر دورها في السقوط والتداعي !

والحقيقة فان الذي يثير هذه القضية لا يكاد يعرف من هو المسؤول الاول عنها ، فان هناك من اللبس والظروف المتداخلة ما يستدعي القلق والحيرة الموجودات التي تشتمل عليها مدينة طرابلس القديمة عقارات او مساجد او مؤسسات علمية ، ليست في عصمة جهة معينة ، فبعضها يعتبر من الاملاك الخاصة ، وبعضها الاخر تحت اشراف الدولة والاوقاف ، وواضح ان أهم الاجزاء التي لحق بها الخراب من مباني المدينة ، يتركز في الممتلكات الخاصة ، ففي موجة التوسع العمراني التي تشهدها اليوم بلادنا اخذ اولئك الملاك ، ومعظمهم كان من سكان المدينة القديمة « يهجرونها » بدافع

ذلك الشوق الشديد للسكنى العصرية ، ، وبسبب آخر لعله خارج عن ارادتهم وهو أن المدينة القديمة قد اصبحت كالجزيرة المعزولة لم تعد تستجيب لتطور العصر ، فأزقتها وشوارعها الضيقة الملتوية لا تكاد ـ في اجزاء كثيرة منها ـ تصل اليها السيارة ، ناهيك عن الحافلة !

ومن ثم فقد تركت هذه الأملاك الخاصة لتصبح في عصمة المؤجرين ، وبما ان هذه الاملاك لم تعد تدر عليهم ما يكفي حتى لصيانتها ، فقد رفعوا عنها يد الصيانة ، وتركت للاهمال والنسيان !

أما الاملاك الاخرى ، سواء تلك التي في عصمة الحكومة ، او في عهدة « الاوقاف » لم يكن حالها باحسن من حال الاملاك الخاصة ، وحتى اذا ما قدر لها ان تحصل على قدر من الصيانة ، فهذا لا يعفيها من ذلك المد الطاغي ، من الاهمال والنسيان ، والهدم الذي يحيط بها من كل جهة وجانب ، ومن هنا نقول ان هذه القضية تستحق منا جميع الجهود ، سواء كانت جماعية ام فردية ، مسؤولة أم غير مسؤولة ، الى انتشال المدينة القديمة من وهدتها ، وانقاذ ما يمكن انقاذه منها ، واننا لمتفائلون بأن مثل هذه الجهود لا بد ان تأتي بنتائجها الطيبة ، ونعتقد ان مثل هذه الجهود قد أعطت اكلها عندما استصلح سوق الترك ، واعيد ترميمه ، ونعتقد ايضا أن تشكيل لجنة من جميع القطاعات التي يهمها الامر ، وعلى رأسها اعضاء من مصلحة الآثار ، يمكنها ان تضع الحلول الناجعة لحماية وصيانة ذلك الزخم الكثير من كنوز تراثنا القومي . وحصر ذلك الزحف الخرائبي ـ ان صح التعبير ـ في أضيق نطاق .

فهرس الاعلام

الامم والشعوب والجماعات

الامكنة والمواضع

كتـــب صـــدرت للمـــؤلف

دراسات في الادب والفن
شخصيات من الشرق والغـــرب
قصة اكتشاف ليبيا في العصر الحديث
الحياة العسكرية في ليبيا (دراسة) ١٧١١ ــ ١٨٢٥)
الحرب البحري بين نيابة طرابلس وامريكا (كراسة)
مدينة طرابلس عبر التاريخ (... ١٨٢٥)
علي مصطفى المصراتي الباحث الاديب
علي صـــدقي عبد القادر شاعر الشباب
دراسات في الادب والنقـــد
مـــدينة صبراتة في فلك التاريخ
ذكريات مسافـــر

الفهـــــــرس

انتهى طبـــع هذا الكتـــاب
في رمضـــان ١٣٩٨ ــ اوت ١٩٧٨
بمطبعـــة القلـــم
تـــونس

عـــدد الناشـــر : ٧٨ ــ ٣ ــ ٧٠١

الدار العربية للكتاب : المقــر الرئيسي : عمارة « وفــاء » شارع
غومة المحمودي . طرابلس ص. ب. 3.185 الجماهيرية العــربية
الليبية الشعبية الاشتراكية هـ. 47.287 ـــ الفرع الرئيسي : 43
مكرر شارع جوغرطة « ليسابس سابقا » تونس . هـ. 282.100

الثمن : 1,200 د.ل. ـ 1,650 د.ت.